أساس الإيمان
(مع العقل والقرآن)

بسم الله الرحمن الرحيم

أساس الإيمان

(مع العقل والقرآن)

القاضي العلاّمة

صلاح أحمد فليته

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صعده

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩هـ-١٩٩٨م

منشورات
مكتبة التراث الإسلامي
الجمهورية اليمنية - صعده
ت: ٥١٣١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى اللّهُ على محمدٍ وآلهِ وسلم

كلمة المؤلف

الحمد للّه الذي لا أول له ولا آخر الذي دل بخلقه على أنه الباطن والظاهر، وبما أبدع من مصنوعاته بأنه الحكيم القاهر، وبما أظهر من عجيب حكمته أنه العليم القاهر، وبما أبدى من لطفه أنه اللطيف الخبير، وبما أسدى من نعمه على خلقه أنه الروؤف الرحيم هو المختص بصفات الكمال ونعوت الكبرياء والجَلال المنزه عن الأشكال، والبعيد عن الأمثال، وهو اللّهُ الكبير المتعال، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كلِ شيءٍ قدير، وأشهد أنه كما وصف ذاته في كتابه الكريم ﴿**لَيْسَ كمثْله شيء وهُوَ السَّمِيعُ البصير**﴾[1]، وأنه منزه عن صفات النقص، ومن إجبار العَبَادَ، وأنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد، وأنه لا يظلم العباد، وأنه لا يظلم أحداً ولا يخلف وعيداً ولا وعداً، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب الكريم والمنعوت فيه بالخُلُق العظيم، والموعود بأنه يُبعَثُ مقاماً محموداً وحوضاً مورداً وشرفاً مشهوداً، وأصلي وأسلم عليه صلاة دائمة النما تملأ الأرض والسماء، وعلى آله العظماء والصفوة الكرماء...

وبعد: فإن من أعظم الواجبات وأجل المفروضات معرفة صانع المخلوقات وبارئ الأرض والسموات، ومسبغ النعماءِ، ومتابع الآلاء.

هذا وقد وضع لذلك المطلوب علم أصول الدين لمعرفة الله رب العالمين ويسمى علم الكلام أيضاً، وهو علم له القدر والمكانة،وعظيم الخطر والأمانة لأن كل علم يشرف بشرف موضوعه، وموضوعه معرفة الحي القيوم ذي الجلال والإكرام، الذي بها يخرج الإنسان من دائرة الشرك والإلحاد ويزحزح

---

(١) [الشوري: ١١].

عن الشك والجهالات الذي ترادفت نعمه في كل المجالات، لذا فقد كثر فيه التأليفات المبسوطة الواسعة الكثيرة، والموسوعات الطويلة الشهيرة، وبسط فيها الخلافات، وتشعبت فيها النزاع والمقالات حتى بعدت الفوائد فيها للطالبين، وتكاسل عن مطالعتها أكثر الراغبين، فرأيت أن أضع مختصراً وجيزاً يشتمل على فوائد مهمة مقربة الألفاظ والمعاني تسهيلاً للطالبين، ومرجعاً للراغبين لما أصبح الناس فيه من القصور عن طلب العلم المأثور لاشتغال الجميع بطلب عاجل الدنيا حتى كاد العلم أن يندرس، والتعليم في خبر كان، ويصبحوا في معرفة الله مقلدين، أو سالكين سبيل الجاهلين، أو ناهجين طريق الشيوعية الملحدين، وقد سبقنا غيرنا فاختار لذلك نظراً حسناً ووضعوا في مجال العلوم مختصرات قريبة المنال تسهيلاً للطالبين، وتشجيعاً لكي تحرز الفائدة الواجبَةَ في أقرب وقت ممكن ولا حاجة لذكر النزاع والخلافات، ولا غرض لنا في بسط المذاهب والمقالات إذ ذاك مما يبعد عن الفائدة ويصد الطالب عن إحراز العائدة.

فهذا مختصر في أصول الدين أرجو الله أن يكون عند الراغبين مقبولاً وعند الطالبين مرغوباً معتمداً فيه على الأدلة الصحيحة من العقل والنقل. وهذا أوان الابتداء مستعيناً بالله ذي الجلال ومفوضاً أمري إلى الله في كل فعل ومقال، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

علم أصول الدين

علم أصول الدين هو: علم يبحث فيه عن معرفة الله وتوابعها من الوعد والوعيد، والنبوات، وما يتعلق بها من المعرفة وأنواع التكليفات وما يتبع ذلك من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يتصل بذلك من الموالاة، والمعادة، وقد قيل في حقيقة أصول الدين هو: علم يبحث فيه عن معرفة الله، وتوابعها، وتصحيح العقيدة الدينية بالأدلة العقلية، والنقلية اليقينية التي لا يحصل معها ريب ولا شك، قال تعالى: ﴿**إنَّمَا المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنْفُسهم في سبيل الله أولئك هم الصادِقون**﴾[1]، وموضوع هذا العلم العظيم هو: أنَ يبحث فيه عن مجالات كثيرة معرفة الله والإيمان بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، إلى غير ذلك.

ومكانته

بين العلوم هو أنه أشرف العلوم الدينية والدنيوية لأنه علم به يوحد الله جَلَّ وعلا، وأنه لا إله إلاّ هو لا يشاركه في الإلهية أحد مع الدليل الصحيح من العقل والنقل وتصحيح العقيدة.

وأهميته

مستمدة من عظمة الخالق سبحانه، وهو علم يعرف به عظمةُ الله ويبطل بذلك شبه المخادعين، ودجل المبطلين، والجاحدين من الطبيعيين، والكفار الملحدين فهو أجل العلوم قدراً وأعظمه خطراً وأفضله ذكراً.

وحكمه

أنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة لأنه لتصحيح العقيدة الإسلامية، والتصديق بالشرائع الإلهية، وسيأتي تفصيل القدر الواجب من ذلك.

---

(١) [الحجرات: ١٥].

إعلم أن معرفة الله هي أفضل المعارف وأجلها وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها، ومنها يتفرع التصديق بالأنبياء والرسل، وما يتصل بذلك من معرفة عصمتهم وصفاتهم والحاجة إلى رسالتهم وما يلحق بذلك من المعجزات ثم التصديق بالوعد والوعيد، وبما جاءت به الرسل من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومنها تشعَّبت المعارف بعالم ما وراء الطبيعة من الملائكة، والجن وعنها إنبعثت المعرفة بمصير هذه الحياة وما تنتهي إليها من الموت ثم الحياة البرزخية - والحياة - الآخروية من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب، وإستحقاق الجنة، أو النار، فلذلك صار هذا العلم أساس العلوم، وأفضلها، وأجلها قدراً، وأعظمها خطراً، ولذلك يسمى علم أصول الدين لأنه لا حكم لعلم قبل العلم به ولا يتمشى أي دين، أو أي حكم في الشريعة مع الجهل به لأنه به معرفة المعبود المصمود ولا يتصور تصديق أي رسول أو أي نبي قبل معرفته فهو الأساس الذي عليه تبنى سائر الأحكام، والديانات، وأصول الشريعة وجميع العبادات، ولا يخفى ذلك عند المتأمل.

غايته

إن هدف هذا العلم هو أهم الأهداف وأعظم المقاصد والغايات وهي معرفة الله سبحانه وتعالى بمعرفة ما يجب له من الصفات والتنزيه عما يستحيل وقوعه منه وما يتبع ذلك من التصديق برسله وصدق ما جاءوا به اعتماداً على الدليل مع إجالة النظر، والتفكير والبعد عن التقليد المذموم وسلوك منهج القرآن الكريم فيما يرشد إليه من الحث على النظر، والتفكير فيما اشتمل الكون من الصنع البديع، وما فيه من أثر الحكمة البالغة من مطالع الأنوار، وإختلاف الليل والنهار وجري الأفلاك من السيارات، من الشموس، والأقمار، مقتفياً لبلوغ مرتبة اليقين الذي تطمئن عنده النفوس، ويزحزح عنه الشكوك والأوهام.

إن القرآن قد أرشدنا إلى تقويم الأفكار، ودعانا إلى حسن التأمل، وإمعان الأنظار، قال تعالى: **﴿قُلْ إنما أعظكم بواحدة أنْ تقوَمُواْ لله مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفكرواْ ما بِصَاحِبكمْ مِنْ جنّة﴾**[1]، وقال تعالى **﴿أَولَم يتفكروا في أنفسهم مَا خلَقَ**

---

(١) [سبأ: ٤٦].

الله السموات والأض ومَا بَيْنَهُما إلاّ بالحَق﴾[1]. وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُروا في ملُكوتِ السمَوات والأرض﴾[2]، فأمرنا بالنظر، واستعمال الفكر وتدبير العقل لما بيَن أيدينا َمن ظواَهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من معرفة دقائق حكمه، وأسراره تحصيلاً لليقين الذي هو المطلوب منا حسبما أرشدنا إليه الكتاب الكريم بأن نعتمد الدليل ولا نسترسل مع التقليد إذ قد نهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم السابقة في الأخذ بما وجدوا عليه آبائهم، قال تعالى ﴿وإذا قيلَ لَهُمْ إتبعوا ما أنْزَلَ الله قالوا بلْ نتَّبع مَا وجَدَنا عليه آبائَنَا﴾[3]، وهي خارجة مخرج الذم لهم وهذا أمر معلوم فالتقليد فيما طريقه العقل والنظر والتفكر مع إمكان الوقوف على الحقيقة بالنظر الذاتي قصورٌ وقبيحٌ ومع أنه قد إختلف الناظرون فمنهم المحق، ومنهم المبطل فما تقليد أحدهم أولى من الآخر مع عدم معرفة المحق منهم من المبطل، ولا يعرف المحق والمبطل إلاّ بالنظر فلذا وجب النظر وقبح التقليد، وسيأتي مزيد من الموضوع في محله.

والله ولي التوفيق والتسديد

---

(١) [الروم: ٨].

(٢) [الأعراف: ١٨٥].

(٣) [لقمان: ٢١].

معرفة الله تعالى

إعلم أيها المكلف أنه يجب عليك أن تعرف الله حق معرفته وكما سبق أن أول ما يجب على المكلف هو: النظر والتفكير في المخلوقات المؤدي إلى معرفة الله تعالى لأن معرفة الله واجبة وهي لا تحصل إلاّ بالنظر فيجب النظر لأن ما لا يتم الواجب إلاّ به يجب كوجوبه، ولا نجاة للمكلف ولا يتم له إسلام حتى يعرف الله تعالى، والإسلام واجب قطعا، ولا يتم إلاّ بالمعرفة، ولأن بها يخرج المكلف من دائرة المشركين ويبعد عن زمرة الملحدين الكافرين، ولأن معرفة المنعم واجب حيث أنه قد طلب منّا تأدية الشكر ولا يمكن تأدية الشكر إلاّ بعد معرفة المنعم، وشكره عبادته، ولا عبادة لمعبود إلاّ بعد معرفته ليمكن توجيه العبادة إليه، والشكر له، وكان الرسول الأعظم يحث الناس على معرفة الله، ويدلهم على ذلك، ويرشدهم إلى طريق المعرفة، وهو التفكر والتدبر، وقد روي عنه ﷺ أنه رجلاً سأله عن أفضل العمل؟

فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: (العلم بالله).

فسأل الرجل ثانياً بالسؤال المذكور؟

فأجابه: (بالعلم بالله).

فقال يا رسول الله أسألك عن العمل، فتجيب بالعلم؟

فقال رسول الله ﷺ: (ويحك إن قليل العمل مع العلم كثير، وكثيره مع الجهل قليل)، أخرجه فخر الدين العنسي في المحجة، وأخرجه السمان والدواري، وغيرهم، فبين ﷺ أن العلم كله هو العلم بالله، قال في تصفية الديلمي ذكر في بعض التفاسير أن ثلاثة أشياء ما غيرت ولا بدلت من وقت آدم إلى وقتنا.

الأول: أصل الدين معرفة الله، قال تعالى ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْننا وبَنيكم ألا نَعبد الاّ الله**﴾[1].

---

(١) [آل عمران: ٦٤].

والثاني: التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصيْنا الذين أُوتواْ الكِتَاب مِنْ قَبْلِكُمْ وإياكُمْ أن اتقُوا اللّه﴾[1].

والثالث: بر الوالدين، كما تعال تعالى: ﴿ووَصينا الإنسان بِوَالِدَيْه إحْسَانا﴾[2].

وفي الزبور رأس الأعمال التقوى، ورأس التقوى الخوف، ورأس الخوف معرفتي بالوحدانية وفيه وخير الحكمة خشية الله وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقى في القلوب اليقين، وأقبح الأشياء النميمة أهـ.

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله علمني من غرائب العلم؟

فقال رسول الله ﷺ (وماذا صنعت في رأس العلم حتى تسألني عن غرائب العلم)؟

فقال الرجل: وما رأس العلم يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ (معرفة الله حق معرفته)

قال يا رسول الله وما معرفة الله حق معرفته؟

فقال: (أن تعرفه بلا مثل ولا شبيه، وأن تعرفه إلهاً واحداً، أحداً، فرداً، صمداً، أولاً، آخراً، ظاهراً، باطناً، لا كفواً له ولا شبيه) صدق ﷺ.

واعلم: أن معرفة الله تجب عقلاً وشرعاً، أما العقل فإنه يوجب عليك معرفة المنعم عليك لتعرف الغرض بالنعمة حيث أنه يحتمل أن هناك طلب مكافأةً، والمكافأةُ واجبةٌ عقلاً فبعد أن يعرف العبد أنه خلق من العدم وخرج إلى الوجود وذلك أعظم نعمة ثم هو يتلقى في كل وقت نعماً لا تحصى وهو مع ذلك لا يأمن أن يكون مطلوباً بشكرها، مع ذلك فالعقل يقضي بوجوب معرفة ذلك المنعم ليؤدي شكره، ولأن كفران النعم قبيح عقلاً، فالجهل بالمنعم قبيح عقلاً، والإخلال بالشكر كذلك لأنه يُعد كفراً للنعمة، وإساءةُ إلى المنعم، فالجهل أو التجاهل بما هذا شأنه قبيح عقلاً.

والدليل على ذلك ما نشاهده، وندركه في الواقع، وفي نفس الأمر لو

(١) [النساء: ١٣١].

(٢) [العنكبوت: ٨].

أحسن إليك محسن بإحسان عظيم، وأعطاك فوائد عظيمة، وهو مع ذلك يتابع إليك إحسانه في كل وقت فأنت ببديهة عقلك، وما تجده في فكرك لا بدّ وأن تطلب معرفته، ويحملك ضميرك أن تبحث عنه بكل وسيلة وإمكان لتعرف غرضه بذلك الإحسان لأنه لا بدّ أن يكون له غرض بالنعمة عليك إما التفضل والإحسان، أو لطلب المكافأة ، أو للاستدراج.

والثاني، والثالث لا يمكن أي ذلك محال في حق الله أما المكافأة فلأنها تكون بمعنى المعاوضة والله هو الغني، وأما الثالث فلأنه ظلم مع عدم التنبيه والإستحقاق، فلم يبق إلاّ أنه تفضُل وإحسان وذلك يقضي وجوب الشكر على ذلك فلذا قلنا أن معرفة الله واجبة عقلاً، وأما الشرع فقد تضمن القرآن كثيراً من الآيات التي تثير العقل على التفكر والنظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى.

وقد نصب الله دليلاً على معرفته بما أبدع من عجيب مصنوعاته وغرائب حكمته ومختلفات مخلوقاته ودلنا على أسرار حكمته، ودقائق آياته ليكون ذلك طريقاً إلى معرفته التي تجب على كل مكلف، لقد أرشد الله العقول إلى التفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من عبر وآيات وما ركب فيها من دلائل وبينات ليصل بذلك إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقال تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾**[1]، **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قُلوب أقفالها﴾**[2]، **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾**[3]، **﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين، وفي أنفسكم أفَلا تُبْصِرون﴾**[4].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال (من عرف نفسه عرف ربه)، **﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابةٍ آياتٍ لقومٍ يُوقِنونْ﴾**[5]، وقال

(١) [البقرة: ١٦٤].
(٢) [محمد: ٢٤].
(٣) [الغاشية: ١٧-٢٠].
(٤) [الذاريات: ٢٠-٢١].
(٥) [الجاثية: ٣-٤].

تعالى: ﴿كَذلك يُبين الله لكم الآيات لعَلَّكمْ تتفكرون﴾[1]، إن الإنسان إذا نظر في نفسه، وما اَشتمل عليه بدنه من دقائق الحكمة والتدبير، وما تضمن من أنواع مختلفة وأجزاء مركبة ومؤتلفة، ومن معان وأغراض وحواس وأعضاء وغير ذلك من اللحم، والعصب، والعروق، وغير ذلك فإذا تدبر بنظر وتفكير يعلم علماً يقيناً أن صانع ذلك هو المتفرد بصفات الكمال ذو العزة والكبرياء والجلال.

نعم ومع ذلك فقد حث الله على الشكر وأوجبه وذم وتوعد على تركه وأوجب على تاركه عقابه قال تعالى﴿اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشَّكور﴾[2]، قال تعالى ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[3]، ﴿الَذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وهو الذي سَخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتَبْتَغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[5] وقال تعالى ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات البينات التي تدل على وجوب الشكر وقد قدمنا أنه لا يمكن توجيه الشكر إلى المنعم إلاّ بعد معرفته، وروي عنه ﷺ [أن الله يقول يابن أدم ما تنصفني أتحبب إليك بالنعم وتتمقَّت إليَّ بالعصيان خيري إليك كل يوم نازل وشرَّك إليَّ كل يوم صَاعد] الحديث أخرجه أبوطالب (ع) في أماليه.

فضل المعرفة بالله تعالى

إن الله سبحانه وتعالى قرن العارفين به الشاهدين له بالوحدانية به وبملائكته المقربين فقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قَائماً

(١) [البقرة: ٢١٩].
(٢) [سبأ: ١٣].
(٣) [النحل: ٧٨].
(٤) [السجدة: ٧-٩].
(٥) [النحل: ١٤].
(٦) [يس: ٧١-٧٢].

بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم﴾[1] إن هذه الآية الكريمة تدلنا على عظم فضل معرفته تعالى، كيف لا وهذه الآية التي يشهد فيها الله وملائكته، وعلماء الدين بتوحيد الله، وعدله وعظمته بالعزة، والجلال وأنه العزيز الحكيم، فكيف لا تكون هذه الآية لها مكانتها في الفضل والشرف لأن كل شيء يشرف بشرف معلومه، فهل ترى شيئاً أفضل من تعظيم الله والإقرار بعدله، وحكمته، وهل ترى شيئاً أعظم من الله خالق السموات والأرض وما بينهما، وقد روي أن أفضل الذكر لا إله إلاّ الله، وروي عنه ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلاّ الله).

ولقد فضلت آيات التوحيد على غيرها كسورة الإخلاص، وآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وغير ذلك لما فيها من ذكر توحيد الله، وبعض صفاته.

ومعرفة الله تعالى تتفاوت في قلوب العارفين ويتفاوت فضلهم بقدر معرفتهم ويقينهم بالله فأعظمهم فضلاً أكثرهم يقينا بالله تعالي، ولقد روي[خير ما ألقي في قلوب العارفين اليقين]، وقال ﷺ (تعلموا اليقين فإني أتعلمه) وروي عنه ﷺ (من عرف الله حق معرفته لم يعصه)، أخرج هذه الأحاديث الديلمي في التصفية، وقد روي [أن صاحب اليقين ذنبه لا يكتب، وتوبته لا تحجب]، رواه عبدالله بن زيد العنسي، وأخرج أيضاً عنه ﷺ أنه قيل يا رسول الله الرجل يكون حسن العقل كثير الذنوب؟

فقال [ما من أحد إلاّ وله خطايا وذنوب يقترفها فمن كانت سجيته العقل وغريزته اليقين لم تضره ذنوبه].

قيل فكيف يا رسول؟

قال: (لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بالتوبة والندامة على ما كان منه فيمحوا ذلك ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة) أهـ.

وروي عنه ﷺ (إن الله قسم العقل ثلاثة أجزاء حسن المعرفة، بالله وحسن الطاعة، وحسن الصبر) رواه الدّواري، وأبوطالب (ع).

وعنه ﷺ (لو عرفتم الله حق معرفته لَزُلْزِلت لدعائكم الرواسي، ولو خفتم الله حق خيفته لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل).

---

(١) [آل عمران: ١٨].

وروي [أن في الزبور خير الحكمة خشية الله، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقي في القلوب اليقين، وأقبح الأشياء النميمة]، وروي ما عصى الله بأعظم من الجهل أي الجهل به تعالى. وروي [من عرف اللّه عظمه ومن عظمه عبده]، وهذا واقع ومحسوس لأن العبادة، والخضوع لله، والخوف منه هو على قدر المعرفة بالله، قال تعالى ﴿**إنما يخشى الله من عباده العُلَمَاء**﴾[1]، وروي في تفسير قول الله تعالى: ﴿**ربِّ زدني علما**﴾ هو علم اليَقين أي العلم بالله وقيل شيء من المعرفة خير من كثير العمل.

وسائل المعرفة

إن للمعرفة بالله وسيلتين الأولى: العقل.

والثانية: النظر وبهما، أي إن العقل بواسطة النظر، والتفكر يكون له القوة البالغة في معرفة صانع الكون العظيم، فهذه المعرفة هي الوسيلة إلى توحيد الله تعالى، ثم بعد ذلك معرفة أسماء الله وصفاته وبمعرفتها يتحرك الوجدان وينفتح أمام الروح وجداناً وآفاقاً فسيحة يشاهد فيها أنوار الله وجلاله.

وسنشرح حول هذه المعرفتين ما يتضح بها الطريق ويحصل عند ذلك اليقين بوسائل التحقيق.

المعرفة عن طريق العقل

إن لكل عضو في الواقع وظيفة، فوظيفة العقل هي: التأمل، والتدبر، والنظر، والتفكير، وإذا تعطلت هذه القوى بطل عمل العقل، وتعطل من أهم وظائفه نهائياً، ويتسبب عن ذلك عدم نشاط الحياة مما يتسبب عنه الجمود واللحوق بالبهيمية ﴿**إنهم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾[2]، حيث أن البهائم يكون لها من الإدراكات والإلهام الذي تكون معه البهيمة قريباً من العقلاء، إن العاقل هو الذي أعطى آلة هي أفضل شيء في الإنسان، فإذا تأخر عن وظيفته فهو أبعد شيء وأقل قيمة من جميع الحيوانات.

إن الإسلام يتطلب من العقل أن ينهض من رقاده ويفيق من سباته فهو يدعوه

---

(١) [فاطر: ٢٨].

(٢) [الفرقان: ٤٤].

إلى النظر والتفكير والتدبر في المخلوقات، وبذلك يتوصل إلى معرفة الله التي هي أجل المعارف وأفضلها، ولذلك عد التفكير من جوهر العبادات. وجعل التفكر ساعةً أفضل من عبادة ستين سنة لأنه يحسن العبادة ويزكيها ويصححها وينميها فلا عبادة كالتفكر وأنه مخ العبادة، وأساسها، وأصل الطاعات وزينتها.

وحقيقة التفكر هو: إجالة الفكر في المخلوقات مع التدبر في ماهية المصنوعات وفي تركيبها وما اشتملت عليه من النظم البديع المحكم وما هناك من الأصناف المختلفات، والأجناس المؤتلفات، والأنواع المتشابهات، وإلى غير ذلك مما لا يحصر من أصناف المحدثات.

الدليل على ذلك

إن القرآن يوجب على العباد التفكر إيجاباً حتماً لازماً، قال تعالى ﴿**قل انْظروا ماذا في السموات والأرض**﴾[1] ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾[2] ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[3] ﴿**أو لم يتفكرو في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجلٍ مسمى**﴾[4] ﴿**قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة**﴾[5] ﴿**إن في خَلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات التي منها ما هو بلفظ الأمر المفيد للوجوب، أو بلفظ الحث والتحضيض على النظر، أو بلفظ الإستفهام الإستنكاري وآيات كثيرة، وكلها مثيرة لدفائن العقول، والكاشفة للحجُب التي طال ما خيم عليها، والقاشعة لسحب الجهل والضلال فمنهم الذين يجحدون نعمة العقل،ولا يستعملونه فيما خلق لأجله، ويغفلون عن آيات الله وقد ندد الله عليهم وجعلهم في موضع التحقير والإزدراء وعاتبهم، فقال تعالى: ﴿**وكأين**

---

(١) [يونس: ١٠١].
(٢) [الغاشية: ١٦-٢٠].
(٣) [الذاريات: ٢١].
(٤) [الروم: ٨].
(٥) [سبأ: ٤٦].
(٦) [البقرة: ١٦٤].

من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون﴾[1] ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلاّ كانوا عنها معرضين﴾[2] حتى إن تعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان في مستوى دنـي أرذل من مستوى الحيوانات حتى يحول بينه وبين النفوذ إلى الحقائق فـي الأنفس وفي الآفاق، قال جلَّ وعلا ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾[3] وقال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هُمِ إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[4].

نتائج العقل

إن العقل هـو الذي يفـرض التمييز، ويفرق بين الحق والباطل، ويميز بين الحسن، والقبيح، والضار، والنافع، ويعقل صاحبه عن الولوج في متاهات المضار عاجلاً وآجلاً، بل إنه الفارق بين الإنسان والحيوان وإن كانت الحيوانات قد تشاركنا في الحواس الخمس، بل ربما يوجد في بعض الحيوانات قوة في بعض الحواس كالشم في بعض، والسمع والبصر في آخر، فإن الإنسان يمتاز بعقل يستثمر به ما في الأرض من خيرات ويطير به في الفضاء ويغوص بـه في أعماق الماء، ويعلم الكثير من المعارف والعلوم عن طريق ما يأتيه من الحواس والمشاعر من إشارات، وما يكتسبه من علامات، ومشاهدات، ومسموعات وغير ذلك ممـا لا يحصى من مدركات العقل.

إن اللّه جلَّ جلالـه جعل العقل آلة للإنسان ليستعمله في منافعه العاجلة، والآجلة وبه حسن من الله أن يكلف عبـاده بأنواع من التكليفات ليتوصل بذلك إلى خيرات الدنيا والآخرة، ويمتاز به إن إستعملـه عن غيره من الإنسان البشري الـذي نبـذه وراء ظهره ﴿لِيَجْـزِيَ الذيـنَ أساءواْ بمَـا عملُـوا ويَجـزي الذيـن أحْسَنُـوا بالْحُسْنَى﴾[5]. قـالَ تعَالـى: ﴿وجَعَـلَ لَكُمْ السَّمع والأبْصَار

---

(١) [يوسف: ١٠٥].
(٢) [الأنعام: ٤].
(٣) [الأعراف: ١٧٩].
(٤) [الفرقان: ٤٤].
(٥) [النجم: ٣١].

والأفئدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونْ﴾[1]، وإذا قد جعل الله العقل في الجنس البشري، وجعلَه حجة فقد طلب منا نتائجه اللازمة، قال تعالى **﴿أفَلَمْ يَسيروا في الأرض فتكون لهم قُلُوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بهَا فإنها لا تَعْمَى الأبْصارْ ولكنْ تَعمى القُلُوبُ التي في الصُّدُور﴾**[2]، فقد ندد الله على هؤلاء الذين لم يستعملوا قلوبهم أي عقولهم فيما يجب عليهم، وقال تعالى **﴿أفَلا يَتَدبرون القُرآن أمْ على قُلوب أقفَالُها﴾**[3] والقلوب فهي العقول وإنما ذلك من إطلاق المحل على الحالّ، **﴿إن في ذلك لآيات لأولى الألباب﴾**[4].

التقليد المذموم

حقيقة التقليد هو: إتباع قول الغير بغير دليل وهذه حقيقته العامة لأنواعه وقد قيل في حقيقة التقليد الفكري هو أن يعتمد الإنسان على تفكير غيره مُسلماً صحته بدلاً من أن يفكر الإنسان لنفسه، والحامل له على ذلك هو أن يستفيد حصيلة كبيرة من المعلومات لا يستطيع أن يحصل عليها بنفسه في هذه المرحلة القصيرة ولكنه يجهل أنه يسبب أضراراً كثيرة، منها ضعف الشخصية بإتباعه للغير في أنظارهم بدون القدرة على الإستقلال، لأنه يفقد الثقة في تفكيره ويرى الآخرين أصح منه تفكيراً، ومنها أنه لن يقدر على الإبتكار حيث لم يجد الجرآءة على المخالفة للمألوف من أفكار الغير، فيقف دائماً عند الآراء التي يعرف أن الناس قد أخذوها، ومنها فقد القدرة على النقد لأنه لا يستطيع إلاّ أن يعتقد صحة ما قيل له، ومنها استمراره وبقاءوه على الأخطاء القديمة وما يترتب عليها من الأضرار والضحايا لأنه ليس له ما يضمن صحة تكفير الغير أو حسن نيته وقد يصاب هذا المجتمع الذي يسوده هذا الأسلوب بالأمعية وهي تدفع بالمجتمع إلى الفناء والإضمحلال من أجل هذا كله حرم الله التقليد وذمه في القرآن لأنه يحجب العقل ويمنعه من الانطلاق نحو التفكير ويعوقه عن السير نحو الأفضل والواجب من التفهم والتدبر، قال الله في شأن المقلدين الذين لا

---

(١) [النحل: ٧٨].
(٢) [الحج: ٤٦].
(٣) [محمد: ٢٤].
(٤) [آل عمران: ١٩٠].

يفكرون إلاّ بعقول غيرهم ويجمدون على القديم المألوف لأسلافهم، ويركنون على نظر آبائهم قال تعالى ﴿**وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا أوَ لَوْ كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾(١)، وذم المجادلين في الله بغير علم فقال ﴿**وَمنَ النَّاسِ من يُجَادلُ في اللّه بغَيْرِ علْم ويَتبع كُلَّ شَيْطان مَرْيْد**﴾(٢)، وقال تعالى ﴿**ومـنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادلُ في اَللَّـه بغَيْرِ علْـم وَلا هُـدىً ولا كتاب مُنير**﴾(٣)، ويوم القيامـة يتبرأ المقلّدون من المقلدين، قال تعالى: ﴿**إذْ تَبرأ الذين اتُّبعُوا مـنَ الذين اتَّبعـوا ورَأوْ العَذَابَ وَتَقَطَّعـت بهمُ الأسبَاب**﴾(٤)، هنالك يتبين لهـم فساد أعمالهم، ويتضح لهم سيء أقوالهم وأفعالهم، وبطلان إعتقادهم.

بطلان التقليد

لقد هاجم الإسلام التفكير النقلي غير المصحوب بالفهم والتدبر، وحذرهم من إتباع الآباء والأسلاف بدافع التقليد ونوازع الضعف، ولأن الاستسلام لتشريعات البشر وأنظمتهم القاصرة الجاهلة نوع من العبودية لأولئك البشر بحجة أن المقلدين قد استسلموا لأنظمتها، ومبادئها، وهي الأمعية التي مقتها الإسلام بقوله ﷺ (لا تكونوا أمعه) بل هو ما عبّر عنها القرآن في إتخاذ الأرباب تُحل الحرام، وتحرم الحلال، فقال تعالى ﴿**إتخذوا أحبَارهُم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾(٥)، فوقعوا في الشرك لأن الذي يشرع الشرائع هو خالق البشر ليس الأرباب، والأحبار، وقد يكون السبب للتقليد هـو النشأة في الصغر معتمدين علـى تلقـي الأفكار ممن هو أكبر منهم واستمرارهم على هذا الأسلوب أثناء فترة التعليم وتعودهم إحترام أقوال كبرائهم، والثقة في صحة معلوماتهم بسبب سبقهم فـي الخبرة واكتمال نموهم العقلـي، وإعتقادهم أن شهرتهم ترجع إلى صحة أفكارهم، وشيوع الفكرة، وانتشارها يجعلها بمثابة أمر واقعي يوحي بالثقة في صوابها ويتأثر بما يخالفها وحتى تفكيره الذاتي مع أن التفكير الذاتي ليس

---

(١) [البقرة: ١٧٠].
(٢) [الحج: ٣].
(٣) [الحج: ٨].
(٤) [البقرة: ١٦٦].
(٥) [التوبة: ٣١].

سهلاً بالنسبة إلى جميع المكلفين ومهاجمة الإسلام، لهذا التفكير النقلي وهو التقليد كاف في التحذير عنه، وهو مذموم عقلاً ونقلاً فإن التقليد كما يكون في الحق يكون في الباطل، وكما يكون في النافع يكون في الضار لأنه إتباع بلا دليل ولا نظر، لسواء السبيل وأنه لسبيل ضلال وسلوك لمنهج مظلم، ووبال يتعثر فيه الإنسان ولا يحسن بحال لكّل ذي دين وإيمان.

إمتياز النظر الفكري عن غيره

إن الله جل شأنه قد أعطى الإنسان آلة قوية لإدراك الحقائق وهو العقل الذي يضمن لصاحبه سعادة الدنيا، والآخرة وهو به غني عن أنظمة البشر وتفكيرهم، ولن يكون المخلوق بأعظم من الخالق، فلذا ركب لكل إنسان عقلاً ليمتاز به عن غيره ويعتمد عليه وحده في عملية التفكير، وما ينتجه العقل عند الجميع هو شيء واحد، وهو الفطرة التي فطر الناس عليها لا تختلف، ولا تتحول في نظر العقل إن استعمل صحيحاً، وهي فطرة الإسلام التي هي نظام شامل لحياة الإنسان وتضمن له السعادة الأبدية، والمادية، والروحية، وتكفل له سعادة الدنيا، والآخرة، وهو النظام الصالح لكل زمان ومكان، وهو ثابت في قواعده وأسسه العامة منظور في جزئياته، وتفاصيله الفرعية.

هذا واللّه سبحانه وتعالى يثني على الذين يمعِّنون النظر في الحقائق، ويميزون بين الأشياء المتضادة بعد البحث، والانتقاد فيأخذون الأحسن، ويدعون غيره، فقال تعالى: ﴿**فَبشِّر عبَادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أوَلو الألباب**﴾[1]، إنه العقل الذي يميز بين الأشياء فيدرك الحسن منها، والقبيح وهو آلة عظيمة، وله معناه، وفائدته، والإنسان به إنسان بشري يوجد به قيمته وتظهر به حليته وإنسانيته، ،ولولا العقل لما كان فرق بين الإنسان وغيره من سائر الحيوانات، وهذه حكمة بالغة وعظيمة وعلى الإنسان نعمة كبيرة وجسيمة، ولذا قال بعضهم إنما سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه من المهالك العاجلة، والآجلة.

والعقل ضروري، واكتسابي.

---

(١) [الزمر: ١٨].

الأول: الضروري هو: الموجود في الجميع وهو العرض الذي لا بدّ منه لكل عاقل وبه الكفاية في التنوير والهداية وبه النجاة من الضلالة، والغواية.

والثاني: الإكتسابي وهو: الزيادة في العقل الضروري، وهو ما يكسبه العاقل بالتجارب، والمماثلات، وما يكتسبه من غيره عند المشاورات، والنظر في أفعال العقلاء، وأهل الفطانة، والحدة، وما يكتسبه عند النظر، والتدبر في العواقب، ونحو ذلك.

وجه وجوب النظر

القرآن الكريم كثرت فيه الآيات التي تدعوا الإنسان أن يوجد النظر ويوجهه إلى خلق هذا الكون من سمائه وأرضه، ويدعوا إلى التفكر في ذلك ليدعم إيمانه ويطرد الشك، والريب عن نفسه قال تعالى: **﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿أَوَلَمْ ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾**[2]، **﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾**[3]، وقد سبق الإستدلال بكثير من الآيات على وجوب التفكر وهو شيء واحد، لأن النظر الواجب هو نظر التفكر والتدبر.

هذا فلما جعل الإنسان الفرد مسؤولاً عن أعماله في الدنيا والآخرة حيث أنه أعطي عقلاً يميز بين ما يضره وينفعه **﴿كل امرءٍ بما كسب رهين﴾**، وجب عليه أن ينظر ويفكر فيما تحمل من تلك المسؤولية، ولذا أعفى الطفل من تلك المسؤولية لأنه لم يكتمل عقله، كما أعفي المجنون لأنه فقد قدرته على التفكير السليم، وكما رفعت المسؤولية- عن الخطأ والنسيان، كما قال تعالى: **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾**[4]، قال بعضهم والتفكير له أساليب مختلفة، التفكير التأملي، والتفكير العلمي، والتفكير النقلي، والتفكير الخرافي.

والمطلوب هنا التفكير التأملي، لأن الخرافي غير صحيح.

---

(١) [يونس: ١٠١].
(٢) [الأعراف: ١٨٥].
(٣) [الجاثية: ٣].
(٤) [البقرة: ٢٨٥].

والنقلي هو: التقليد.

والتفكير العلمي هو: خاص بقضايا علمية.

فالتفكير التأملي هو: النظر والتدبر عن حقائق الأشياء، وموضوعاتها، وموضوعياتها.

فأولها: النظر في ذاته، ومن أوجدها، ووجود ذاته على أبلغ الكمال، والنظر فيمن أوجده من العدم ولا زال يسدي إليه جلائل النعم التي يقضي العقل بوجوب شكرها؛ تلك النعم التي تعقبت نعمة الوجود من النعم التي لا تحصى، فلذا قال بعض العلماء إن العقل بقضيته المبتوتة، وطبيعته الأصلية يقضي بشكر المنعم؛ وصحة شكره مترتبة على النظر، والتدبر، والتفكر في المخلوقات، ولا طريق إلى معرفة الله إلاّ بالنظر في مخلوقاته، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فمن هنا يجب النظر، وتحقيق ذلك أن العبد العاقل يجد نفسه موجودة بعد أن لم تكن، وهي مركبة من لحم، وعصب، وعظم ودم، وغير ذلك من الحواس والأعضاء والأنفاس والخروق والآلات، كما قال تعالى: ﴿**هل أتى على الأنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا**﴾[1]، وهو في كل حالاته محتاج إلى غيره في جميع الوسائل والأوقات فيجد مع هذا إحساناً عظيماً،ونعماً لا يحد قدرها الفكر، ولا يقدر لها جزاء مهما كان من الأشياء، عند ذلك، فالعقل يطلب منك أيها العبد ويوجب عليك النظر لمعرفة ذلك المنعم لتعرفه فتؤدي شكره كما أمرت، ومن هنا وجب النظر لأن ما لا يتم الواجب إلاّ به يجب كوجوبه، قال بعض العلماء إن معرفة الله واجبة على كل مكلف وجوباً قطعياً لا يعذر عنه أحد، وطريق المعرفة النظر، فيجب النظر وجوباً مضيقاً عند كمال الحجة.

وهي العقل فمن مكث بعد بلوغه وكمال عقله وقتاً يمكنه النظر، وتعدى إلى الوقت الثاني وهو جاهل فهو خارج عن حد النجاة وواقع في بحور الهلكات حتى يستأنف التوبة ويقلع عن الجهل والغفلة بالنظر في معرفة هذه الجملة أهـ. .

---

(١) [الإنسان: ٢-٣].

طريقة النظر

إن العقل إذا فكر في المخلوقات وتغييراتها ولزومها للزيادة والنقصان والتحولات يحكم حكماً قاطعاً بأنها مخلوقة ومحدثة، وأنه لا بدّ لكل فعل من فاعل، وأن الفعل دليل على قدرة الفاعل، وأن الفعل المحكم البالغ في الحكمة دليل على أن فاعله حكيم وعليم والقدرة والعلم يقضيان بوجود الفاعل، وحياته حيث أن الجماد والمعدوم والعاجز والجاهل لا يقدر أي واحد منهم على صنع أي فعل لا محكم، ولا غيره، وهذه قضية مبتوتة ضرورية لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تتحول عند كل عاقل فتأمل تصب.

الدَّليلُ على وجُوبِ النَّظر

الدليل على وجوب النظر: العقل، والنقل.

أمّا العقل: فإنه يحكم بأن العلم حسن، وأن الجهل قبيح فيحكم أيضاً على العبد أن يخرج من دائرة الجهل القبيح إلى دائرة العلم الحسن وقد أعطي ما به يخرج من دائرة الجهل وهو النظر الفكري والتمييز.

وعند أن يعرف أنه لا يحصل العلم إلاّ بالنظر، والتدبر، والتفهم في المخلوقات تحتَّم عليه ذلك، وكذلك إذا عرف أنه إن لم ينظر ويميز بين الأشياء لم يبلغ إلى إستجلاب نفع، ولا دفع ضرر، ولا يبلغ إلى صلاح دين ولا دنيا تحتم عليه مرة أخرى، ومما يدل على وجوبه أيضاً أن العلم بحقائق الأشياء لا يتأتَّى إلاّ من أمرين، إمّا النظر، وإمّا التقليد.

والتقليد في الأصول أعني فيما طريقه النظر ممنوع لأنه لا يعرف المحق والمبطل إلاّ بالنظر، فالمحق ليس بأولى من المبطل بأن يقلد لعدم معرفة أنه محق قبل النظر وليس لك طريق إلى معرفة المحق إلاّ بالنظر وإذا نظرت عرفت الحق، واستغنيت عن التقليد كما سبق تفصيله.

هذا وقد ذم المقلدين في آيات تتلى وأخبار تملى كما سبقت الإشارة إلى ذلك قريباً.

وأما النقل: فالآيات القرآنية التي سبق ذكرها من الأمر بالنظر والتفكر، وروي عن علي كرّم الله وجهه في الجنة، عن النبي ﷺ: (من أخذ دينه عن

التفكر في آلاء الله وعن التدبر لكتاب الله والتفهم لسنتي زالت الرواسي ولم يزل، ومن أخذَ دينه عن أفواه الرجال وقلدهم فيه ذهبت به الرجال من يمين إلى شمال وكان من دين الله على أعظم زوال)، ولمّا كانت معرفة الله مما تهتدي إليها العقول السليمة والأفكار القويمة أرسلَ الله الرسل وأيدهم بالمعجزات التي يعلم بها قطعاً صدقهم، وأنزلَ الله إليهم الكتاب الذي فيه بيان الشرائع والأحكام وبيان كيفية شكر المنعم على نعمه التي لا تحصى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل المرشدين للأمم إلى أقوم سبيل، فأثار سبحانه دفائن العقول بالآيات البينات، ونبه العقول على النظر في عجائب المخلوقات ليدلهم على الوصول إلى تحقيق معرفته الإلهية وكمال صفاته الذاتية الربوبية وليعرفوه أنه مختص بالملك والعظمة، والكبرياء، والوحدانية، فنبه العقول عن سنة الغفلة وأيقظها من سبات الجهل ليسلكوا سبل الهداية، ويصد عن طريق الغواية ومنهج الضلالة، ولتتخلى عن رينها وغفلتها التي سببها إتباع الهوى، والتخيلات الفاسدة، وإتباع الشبه المضلة، وتقليد المفسدين، وسلوك منهج المضلين.

فهذه نعمة من الله على عباده حينما يدعوهم إلى الهدى، وينبههم على ما يدلهم إلى الخير والتقى، ويحذرهم عن سلوك مناهج الغي والردى، والتخبط في مفاوز الجهالة والعمى قال تعالى: ﴿**ليَهْلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينه**﴾[1]، سبحانك اللهم وتعاليت، ولك الحمد على ما أعطيت وأوليت.

نعم فيجب على كل مكلف أن يتدبر الآيات البينات في كتابه المجيد المرشد إلى أنوار الهداية والتوحيد، والصارف للعقول عن الفساد والتقليد، والهادي إلى معرفة الله وتوحيده، وإلى الإيمان بصدق وعده، ووعيده، قال تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[2]، وقال جل وعلا: ﴿**أفَلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾[4]، وقال جلَّ من قائل: ﴿**فلينظر**

---

(١) [الأنفال: ٤٢].
(٢) [فصلت: ٤٦].
(٣) [محمد: ٢٤].
(٤) [آل عمران: ١٩٠].

الإنسان مم خلق، خُلقَ منَ مَاء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فلينظرَ الإنسان إلى طعامه، أنَّا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقا، فانبتنا فيها حباً وعنبا﴾[2]، وهذه الايات وغيرها تدعونا إلى التفكر والتدبر في المخلوقات لمعرفة صانعها ومدبرها، وتوقظ العقول وتفتح أمامها أبواب النور والهداية، وسيعرف من هذا الخلق العجيب ما لله من صفات الكمال ونعوت ذي العزة والجلال، ومظاهر عظمته وأدلة قدسه وشمول علمه، ونفوذ قدرته، وتفرده بالخلق والإبداع، وما اختص به من الإيجاد، والإبتداع وعند ذلك يحصل الإيمان الذي لا ريب معه، والتصديق اليقيني الذي يرتفع بذلك إلى درجات العلى ويشمله قول الله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾[3]، ليفوز بما فاز ﴿أولئك الذين على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[4].

غاية التفكر

أن غاية التفكر وفائدته وثمرته لَمنْ أجل الغايات التي يريدها الإسلام حيث إستعمل العقل وظيفته التي هي النظرَ والتأمل والتفكر لهداية الإنسان إلى قوانين الحياة وعلل الوجود وسنن الكون وحقائق الأشياء وهذه هي الأشياء التي تكشف عن مبدع الكون وخالقه.

ولنأخذ برفق إلى هذه الحقيقة الكبرى حقيقة المعرفة بالله تعالى وأن معرفة الله تعالى هي نتيجة عقل ذكي مُلْهَم وثمرة تفكير عميق مشرق قد استنار بنور الهداية واستضاء بمصباح الهدى النبوي، وتأمل لمعاني صريح القرآن الإلهي قد سمت به إلى أعلى درجة المعرفة والعلا، وتأمل بوعي قول الله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءاللهُ خيرٌ أمَّا تشركون، أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلَهٌ مَعَ الله بل هم قوم يعدلون، أمَّن جعل الأرضَ قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعَل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجِزاً أإلَهٌ مع الله بل

(١) [الطارق: ٥-٧].
(٢) [عبس: ٢٤-٢٩].
(٣) [البقرة: ٣].
(٤) [البقرة: ٢٥٠].

أكثرهم لا يعلمون أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أَإِلَهٌ مع الله قليلاً ما تذكَّرون، أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أَإِلهٌ مَعَ اللـه تعالى الله عما يشركون، أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أَإِلَهٌ مَعَ اللّه قـل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[1]، إن هذه براهين ساطعة، وحجج بالغة، وإذا لم يخضع العقل لهذه البراهين ويذعن مصدقاً لهذه الحجج الساطعة فإنه لا يقبل أي برهان مهما كان ولا يذعن لأي حجة أو بيان.

المَعْرِفَةَ مِنَ طَرِيق الأَسْماءِ والصِّفات

إن من الوسائل النافعة لمعرفة الله تعالى والذي إتخذها الإسلام لتعريف الناس بالله هي أسماء الله الحسنى وصفاته العليا فهي كلها وسائل جعلها وسيلة لخلقه إلى معرفته، وهي النوافذ التي يلج منها القلب إلى معرفة الله مباشرة لأنها تحرك الوجدان وتفتح باب العرفان حتى يكون أمام الروح آفاق فسيحة يشاهد فيها أنوار الله ذي الجلال والإكرام، وهي التي ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أيًّا مَا تدعوا فله الأسماءَ الحسنى﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾[3]، بعد تعداد بعض صفاته في الآيتين السابقتين آخر سورة الحشر، ولقد أمرنا أن ندعوه بها، فقال تعالى: ﴿فلله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[4]، وعددها تسعة وتسعون إسماً، كما رواه الكثير، وأخرجه أئمتنا وأخرجه البخاري وصححه وهي الأسماء المشهورة المعروفة ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار، المتكبر﴾[5]، إلى آخرها فانظر إلى هذه الأسماء الجليلة الكريمة العظيمة فإنها تفتح لمتأملها أبواب واسعة من المعرفة بالله تعالى إذا فهمها الإنسان حق الفهم وأدرك معناها بدقة -

---

(١) [النمل: ٥٩-٦٤].
(٢) [الإسراء: ١١٠].
(٣) [الحشر: ٢٤].
(٤) [الأعراف: ١٨٠].
(٥) [الحشر: ٢٣].

وأدرك معناها حق الإدراك أنها تنفعل لها النفوس وتخر مذعنة أمام هذه الألفاظ، ومن إتخذها نبراساً وأنموذجاً فإنها تكشف له عن أكبر حقيقة من حقائق هذا الوجود وتبرهن عن ذات في أبلغ كمال وأكمل جلال لا يبلغ كنهه، فتعالى الله الملك الحق لا إلـه إلاّ هو رب العرش الكريم.

العالم محدث

إن العالم بما اشتمل عليه من التركيب العجيب، وما فيه من الزيادة والنقصان وتعاقب الليل والنهار ومطالع الشموس والأقمار، وما فيه من الحركة والسكون والتغير والتحول، وما فيه من النباتات واختلاف أنواعها، وما فيه من الحيوانات على تعدد أشكالها وحلوله في الأمكنة والأوقات، وما فيه من المتآلفات والمفترقات يدل دلالة قاطعة لا ريب في ذلك ولا شك ولا أي خالط يخالج العقل، ولا أي خالج يخالط اليقين أنه محدث وأنه لا بدّ له من محدث أحدثه، وخالق دبّره، وصانع صنعه واخترعه، وموجد أوجده وابتدعه، وحكيم أحكمه وقدره، ومصور رتبه وصوره.

وإذا ثبت أنه محدث فكل محدث لا بدّ له من محدث ضرورة ما نشاهده في الشاهد أنه لا يوجد بناء إلاّ من بان، ولا مُرَكَّب إلاّ من مُرَكِّب، ولا مؤَلف إلاّ من مؤلِف يعرف هذا منَ لم يكمل عقله.

هذا ولأن من المحال العقلي أن يكون محدث هذا العالم نفسه أو مثله أو بعضه أو طبيعته.

وسنوضح ذلك بأوضح بيان وأجلى برهان فنقول: أما نفسه فمحال عقلاً لأنه يلزم تقدم الشيء على نفسه لأن العدم لا يؤثر شيئاً قطعاً، وتقدم الشيء على نفسه محال لأن تقدمه على نفسه إما أن يكون المتقدم موجوداً أومعدوماً.

الثاني وهو: تقدمه معدوماً غير معقول إذ تقدم المعدوم على المعدوم لا معنى له، ولا يعقل لأن العدم لا شيء.

وأما الأول وهو أن يكون المتقدم موجوداً والحال أنه نفسه فتحصيل الحاصل محال، وأمّا البعض منه فممنوع بالأولى، والأحرى لإستلزامه أن يكون

الشيء سبباً لنفسه ولمّا سبقه إن لم يكن أولاً، ولنفسه فقط أن فرض أنه الأول، وبطلانه واضح ومعلوم وعند العقلاء محقق ومفهوم.

وأمّا المثل فشاهده الضرورة أن المثل لا يؤثر في مثله قطعاً لأنّ المثل لو قدر على إيجاد مثله لكان الإنسان على ذلك أقوى شيء في العالم لما يحمله من الفهم والإدراك، وغير ذلك من الوسائل،وقد عرف عجزه عن معرفه بعض أجزائه فكيف بالصنع والإيجاد من العدم والأحداث.

قال بعض العلماء تحت عنوان الممكن موجود قطعاً لأن نرى أشياءً توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت، كأشخاص النبات والحيوانات، فهذه الكائنات إما مستحيلة، أو واجبة، أو ممكنة لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرى عليه الوجود، ولا الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته، وما بالذات لا يزول فلا يطرى عليه العدم، ولا يسبقه كما سيأتي في أحكام الواجب فلم يبق إلاّ أنها ممكنة والممكن موجود قطعاً أهـ. .

فثبت أنها موجودة لإمكان وجودها،والموجود بتمامه محتاج إلى موجد له ومن الواجب أن يكون من جملة الممكنات لأنه تعذر أن يكون سبب الممكنات أنفسها وجب أن يكون مصدرها سواها، وهو الواجب الوجود، قال بعض العلماء الذي ينص على أن لكل حادث سبباً هو أنه لا يحدث عفواً، والعلة هو ما يحكم العقل بأنه يكفي لتفسير وجود الحادث وهو يتضمن مبدأ العلة الكافية، الحكم بأن كل حادث قابل لأن يفسر بالعقل أو قابل لأن يفهم، وليس المراد بذلك أن العقل قادر على الفهم، وإنما المراد لأن يكون في حد ذاته معقولاً أو مفهوماً، فمثلاً إذا توفرت للعقل في وقت ما كافة المقدمات، والعوامل، والظروف المحيطة بوجود الشيء يكون وجوده وحدوثه نتيجة حتمية لتلك العوامل والمقدمات في نظر العقل وعَدَم فهم أي شيء في الظاهر ليس إلاّ بسبب عَدَم الإحاطة بجميع المقدمات التي تكون كافية لإيجاد النتيجة وإذا يكون فهم أي شيء هو إلمام العقل بعلته الكافية، والعالم الواقع واقعَ ومشاهد معلوم وموجود وليس هو الذي أوجد نفسه لأن القول بأنه أوجد نفسه يوجب تناقضاً عقلياً، وطالما أنه واقع فلا بدّ له من علة كافية لوجوده لأنه بدونها لا يكون موجوداً، والواقع أنه واقع وموجود ولا مجال لانكار وجوده ما دام موجوداً وفيه

هذا النظام الدقيق، والإحكام المتيقن إلى حد الكمال فلا بدّ أن تكون العلة كافية لوجوده لها منتهى القدرة والحكمة وكل صفات الكمال، وهذه العلة الكافية هي الله الواجب الوجود الذي يوجب إنكاره تناقضاً عقلياً، ومن هذا يتضح أن قوانين الفكر الأساسية هي المبادئ العقلية البديهية والتي يعتمد عليها كل تفكير سليم وهي عامة وضرورية من الناحيتين الذاتية والموضوعية فعمومها من الناحية الذاتية وجودها في كل عقل إنساني بالفطرة، وعمومها من الناحية الموضوعية حيث أنها تصدق كل شيء موجود في عالم الواقع، ومعنى كونها ضرورية ذاتية أن التفكير السليم مستحيل بدونها ومعنى كونها ضرورية موضوعية هو أنه لا يمكن أن يوجد في الواقع شيء مناقض لها وهذا هو التفرقة بين التفكير السليم والتفكير الخرافي أهـ. . فتأمل هذا فهو مفيد.

وأما الطبيعة فهي غير معقولة في نفسها وإذا لم تعلم في نفسها فكيف بالنسبة إليها وبالنسبة إلى التأثير الكبير الذي لا يقدر عليه ذووا العقول الرصينة العظيمة والإدراكات السليمة والأفهام القويمة الذي تتحير العقول عند إدراك عجائبه، ودقائق أسراره، ويبهر العقول والألباب ما اشتمل عليه من الأحكام، وما فيه من التدبير العجيب الذي خضعت العقول مذعنة ومصدقة وقاطعة بأنه لا يمكن هذا إلاّ من حكيم لا يدخل تحت الإدراك غاية حكمته وقدرته، والطبيعة في حد ذاتها معدومة عند التحقيق والبحث عن ماهيتها فهي قول ليس له معنى واضح، وننقل ما قاله بعض المحققين مع تصرف.

قال ما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما حقيقة تاثيرها؟

ويا للأسف كيف تخيم على أفهام كما تخيم على أوهام مع أنها لا تستند إلى أساس فكيف تسيطر على عقول كثير من الناس ممن يدعي الثقافة والمعرفة وقد عدمت في نفسها دون أن يكلفوا أنفسهم البحث عنها والتمحيص عنها فكيف يطلبون المعدوم ويزعمون أنه إله، **﴿بئس للظالمين بدلا﴾** رفضوا عقولهم تحت أقدامهم وتركوا أفكارهم خلف ظهورهم **﴿ما لهم بذلك من علم إنهم إلاّ يخرصون﴾** أهـ. .

هذا ونشير إلى ما أشار إليه بعض المحققين المحصلين في شرح الطبيعة وإبطال تأثيرها بتصرف وزيادات.

قال والطبيعة في اللغة: السجية والخلق والعادة، غير أن الطبيعة اليوم في عقول الناس على حسب تفاوتهم لها مفهومان.

المفهوم الأول: أنها عبارة عن الأشياء بذاتها فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الكائنات هي الطبيعة، وهو مفهوم غير دقيق وحكم غير سديد، كما سيتضح لك إنشاء الله.

المفهوم الثاني: أنها عبارة عن الأشياء وخصائصها فهذه الصفات من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة وملابسة وخشونة وهذه القابليات من حركة وسكون ونمو واعتدال وتراوح وتوالد وكل هذه الصفات والقابليات هي الطبيعة، وسواء كان القول الأول، أو الثاني فماله نصيب من الحق، وليس له مجال في مضمار الصدق، أما القول الأول فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء فالأرض خلقت الأرض والسماء خلقت السماء، والأصناف صنفت نفسها، والأشياء أوجدت ذاتها فهي الحادث والمحدث وهي الخالق والمخلوق في الوقت ذاته وبطلان هذا القول بين لا يحتاج إلى تطويل فهو إما دعوى بأن الشيء وجُد بذاته من غير سبب وقد تبيّن لك فساده وإما إدماج الخالق والمخلوق في كائن واحد فالسبب عين المسبب وهو مستحيل بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح.

وأما القول الثاني وهو الإعتماد الثاني على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين فنقول فيه إن الذين يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص لا يعدون عن كونهم وصّافين لتلك الظواهر لا يعرفون كونها ولم يكلفوا أنفسهم البحث عنها وعن حقيقتها ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء إنما هو سراب خادع **﴿يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده﴾**.

هذا ونقول أيضاً مثلاً الحرارة التي هي الصفة المكونة على حد قولهم نقول لهم: هل الحرارة موجودة قبل الذات حتى أثرت فيها؟

فإن قالوا: نعم.

قلنا: ومن أوجدنا في نفسها؟.

فإن قالوا: أوجدت نفسها.

أحالوا، وإن قالوا قديمة.

قلنا لا تعقل حرارة مستقلة في غير ذات.

وإن قالوا: وجدت مع الذات.

قلنا: فما نسبة أحدهما إلى التأثير بأولى من الآخر، وهذا إلزام لازم لا محيص عنه، ونقول أيضاً إنّا نضع الحبة في التراب ونسقيها بالماء فتتفتح وتتفلق وينزل منها العروق إلى أسفل والساق إلى أعلى وتنشأ الأوراق والأزهار فالثمار فتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً، فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانفتاح والانفلاق ولولا هذه القابليات المتوالية لما أطردت تلك الظواهر الحيوية ولما نشأت عنها الثمرة فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها لو لم تنفتح الحبة وتنفلق لما نشأ شيء فمن الذي نفخها وفلقها، لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا إن عقلها هو الذي هيأ لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها لأمكن للماء أن ينفتح في الحديد ويفلقه، إذا فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر وإذا كانت الحبة بذاتها إنتفخت وانفلقت فلم ذلك، لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تنتفخ وتنمو، ولكي يحصل التكاثر والبقاء يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة لا تملك شيئاً من ذلك فكيف حصلت إذا أثمرت بعينها بل كيف حصلت الثمار الكثيرة المتنوعة وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها والشجرة تثمر السنين الكثيرة، فهل الطبع في الحبة؟ أو في الشجرة؟ وكل منهما معدوم، أما الحبة فقد عدمت، وأما الشجرة فالمفروض أنها الحبة لا غير وليس لها طبع في الثمرة.

والحقيقة أن من أمعن النظر في تعبير الطبيعيين المستندين إلى القابلية في قولهم طبع النبات على ذلك إنتفخت الحبة وانفلقت وتوالدت، فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فلقها؟ ومن الذي أدّى إلى التوالد، كل هذا التحقيق لا يصل إليها نظرة الطبيعيين القصيرة، بل المقتصرة على وصف الظواهر دون الذهاب إلى أسبابها، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً والقابلية مؤثراً والظاهرة المجهولة عاملاً مكوناً والإنتفاخ صفة نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء وعن

قبول أثره في ذلك الشيء والإنفلاق صفة والإمتداد صفة وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركباً سماه قابلية التوالد والنمو فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سبباً في الخلق من الصفة الإنفعالية التي لا تعي ولا تدرك سبباً فاعلاً واعياً في تكوين الأشياء، إذن فمن الذي ركز الطبيعة في العناصر ومن الذي نوَّع تلك الطبائع على اختلاف الأجناس في الأثمار والفواكه مع أن التراب واحد والماء واحد وتنتج كل شجرة ثمراً مختلفاً عن الأخر بلونه وطعمه ورائحته مع أنه يسقى بماء واحد وفي أرض واحدة، وربنا الرحمن الرحيم يشير بآية ترد على الطبايعيين رداً مفحماً، حين يقول جل وعلا: **﴿وفي الأرض قطعٌ متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**[1]، فهذه آية عظيمة أبان الله فيه جلَّ وعلا أنه المتصرف والخالق والمخالف بين هذه شجرة صغيرة، وهذه كبيرة، وهذا صنوان وهذا غير صنوان وكلها تثمر ثمراً متنوعاً ومختلفاً في اللون والحجم والطعم هذا بتقدير العزيز العليم.

أما الطبع المعدوم الذي يزعم من لا فكر له ولا تدبير ولا عقل ولا تفكير فإنما ذلك تهويس خارج عن المعلوم والواقع المفهوم، **﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾**، يا لله لأفهام جامدة وضالة فاسدة وتائهة كاسدة تميل عن الهدى وتستبدل النور بالعمى وتنكر الحقائق وهي تشاهد جزئيات النباتات والحيوانات على إختلافها وتعداد أنواعها وتقويتها قواها وما تحتاج إليه لبقائها ونموها قد أعطى النبات قواها ولكل شجرة ميل إلى ما يناسبها من الغذاء دون ما يلائم الأخرى، فإنك ترى بذرة الحنطة عند شجرة الحلوى في أرض واحدة وتسقى بماء واحد فتمتص الأولى المرُّ الزعاق، والأخرى الماء العذب الحلو المذاق، وهذه حكمة الواحد الخلاق، وكذلك الحيوانات لكل من أنواعها قوة مختلفة ولون مختلف وجسم مباين ولكل غذاء مع كثرة أنواعها وتعدد أصنافها واختلافها في بدء خلقها وإنشائها منها ما يتصور في بطون أرحام أمهاتها، ومنها ما يتصور في حبوب البيضات، ومنها بيضات في النبات، ومنها في التراب، ومنها في الماء في البحور والأنهار إلى ما يكثر تعداده ويبعد حصره، وترى

---

(١) [الرعد: ٤].

الوحوش تتغذى من بعضها الآخر، وكذا في الحوت البحار، ومنها ما يتغذى من الأفواه، ومنهـا ما يتغذى من الأطراف، ومنها يتغذى بكل جسمه وليس له فم ولا مجاري وغيره من الحيوانات، ومنها ما يحتاج إلى الماء، ومنها ما يتغذى بالماء، إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

فائدة ودليل مقنع

إذا نظرنا فـي اختلاف الحيوانات، واختلاف صورها، وألوانها وأصواتها حتى فـي الخلق الإنساني البشري فلا تجد اتفاقاً فـي شخصين من جميـع الاحوال فـي الخلق والصورة واللون والصوت، فإن ذلك اختلاف واضح، ونظرنا فإذا هناك فائدة عظيمة ودفع مفسدة جسيمة وذلك لموجب التمييز بينهم ومعرفة كل شخص على حدة ولو كانت متفقة لوقع الفساد العظيم في إلتباس الأولاد، والتباس الزوجات، فالصورة مديزة في النهار، والأصوات بالليل، وكذا الحيوانات التي نحتاج إليها ونملكها لو لم تتميز كل واحدة من الأخرى لوقع الإلتباس والإرتباك في الأملاك، ولما كانت الطيور كالعصافير، وغيرها والحوت بأنواعها لا يحصل فائدة ولا فساد كانت الصور متفقة والإلتباس بين أجزائها لا يضر لعدم تملكها فمن الذي خالف بين أنواعها وميزّ بين ما يوجب الفساد في تماثلها، وماثل بين ما لا يوجـب فساداً ولا ضرراً ذاك الله العزيز الحكيم العليم القدير.

هذا وإنك لترى الأثمار، والزرائع، والأشجار قد تختلف عن عادتها فتثمر الشجرة تارة كثيراً ومرة قليلاً، وأخرى لا تثمر، شيئاً، وقد يفسد ثمرها في بعض الأوقات فتتساقط الأثمار قبل صلاحها، كأن يعتريها بعض الأمراض الذي يؤدي إلى فساد الثمار، وكذا الأشجار قـد يصلح منها بعض ويفسد آخر، وكذا الثمار يصاب بأنواع من الإختلافات الظاهرة، فمن الذي غير أحوالها، ومن الذي نوعها وخالف بين أجناسهـا **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾**.

ثم نقول لأهل الطبع نحن نتفق جميعـاً أنه ليس للحبة عقل، ولا لجذر النخلة إدراك فكيف كان الجذر يمتص الماء ويصفي ذرات بعينها ويجذبه إلى أعالي الشجرة وإلى حبات الثمر ويكون العصارة والحلاوة، وقد تجد الحبـة من الثمار أشكال وألوان وطعم مختلف في أوقات طلوعها، كثمر النخل أوله أخضر ثم يصفر ثم يحمر، وفي كـل حالة له ذوق وطعـم، تخالف الحالـة الأخرى، كل ذلك يجعلنـا

نسأل عن السبب ولا نقف عند المجهول ولا نكتفي بوصف الظواهر، ونحن نعلم أن القابلية ليست إلاّ صفة من صفات الشيء فكيف تختلف الحالات، وإن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا تعقل فكيف تنوعه، وإذا لاحظت أننا لا بدّ وأن ننظر إلى طبائع الأشياء وأن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة وعمن طبع الأشياء عليها، وكيف تؤثر وهل تبدع تصنف وتركب وهل هي فاعلة بذاتها أم منفعلة لغيرها.

هذا ولولا قصر النظر عند الطبيعيين على هذه الأسباب الغريبة المحيّرة دون مبرر لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجماً مع ما تقدم من التحقيق العلمي في قوله تعالى: **﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنا تؤفكون﴾**[1]، وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل وتحسم الأمر وكم من آية تدلنا على أن الله سبحانه هو الخالق البارئ المصور الصانع المدبر الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، فتباً وسحقاً لمن يعدل عن الحقائق المعلومة إلى خيالات وأوهام مزعومة وينكر الشمس وضوئها حين انتصاف النهار ويرمي الشمس بالظلام، ويعارض الحقائق بالأوهام، فهؤلاء القائلون بتأثير الطبع أنكر عقله وجحد المعلوم الذي كالشمس في الوضوح واستبدل ذلك بحيرة وظلام وشكوك وأوهام، **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾**[2]، **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**[3]، **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾**[4]، **﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾**[5].

إن الله سبحانه قد أمدَّ الإنسان بوسائل العلم وإمكانيات العمل وسخر له ما أودع في هذه الأرض من معادن وكنوز وأشجار وصخور وتراب وماء، وما فيها

---

(١) [الأنعام: ٩٥].
(٢) [الشورى: ٢٩].
(٣) [آل عمران: ١٩٠].
(٤) [العنكبوت: ١٩].
(٥) [يونس: ٨].

من الأنعام، وغيرها مما يؤكل ويركب ويتوصل به إلى غايات من المنافع، **﴿أفرأيتم النار التي تورون، ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾**[1]، **﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾**، **﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون﴾**[2]، **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون﴾**[3]، ناد أهل الضلال من الطبايعيين الملحدين الجهال الذين بدّلوا ونبذوا العقول وراء ظهورهم وأصبحوا في وادي غيهم يعمهون، ما يقولون عند هذه الآيات البينات التي يشهد بصدقها واقع الحال فسبحان الله ذي العزة والجلال، لو نظر ما بسط الله في الأرض من الخيرات الكثيرة للإنسان ومكنه من المشتهيات وبواسطة العقل يتوصل إلى كل الخيرات واتصل بأنواع العلوم وعرف كثيراً من عجائب الملكوت، فمعرفة حدوث العالم قريبة لكل عاقل متدبر لقوة البراهين ووضوح دلائل اليقين وإن آية واحدة تسكت شغب الملحدين والمعاندين، وتخرس ألسنة الجاحدين الظالمين **﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون﴾**[4]، **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾**[5]، إن خلق العالم وحدوثه لحقيق بأن لا يختلف فيه إثنان لأن دلائل الأثر على المؤثر، والنظام على المنظم، والفعل المحكم على الحكيم، والفعل على الفاعل القادر يدل دلالة بديهية وضرورية، وإن ذلك مما

---

(١) [الواقعة: ٧١-٧٣].
(٢) [المؤمنون: ٢١-٢٢].
(٣) [النحل: ٤-٨].
(٤) [الأنعام: ٤٦].
(٥) [القصص: ٧١-٧٣].

يدركه الحيوان الذي لا يملك عقلاً، فإن الحيوان إذا أحس بجسمه ضرباً يلتفت ينظر من ضربه لأنه قد ركَّز في فطرته أن الأثر لا بدّ أن يكون له مؤثراً، وهكذا لو وجدت بيتاً في مفازة تعلم وتقطع أنه لم يبن نفسه وأن بانٍ بناه وركبه، ولو رأيت كتابةً فإنك تقطع أن لها كاتباً، وإلى غير ذلك مما هو مُدرك ومقطوع به عند العقلاء، وكل الأفعال والمركبات المحكمة تدل على أن صانعها محكم، ودليل ذلك الوجدان بالتجارب المشاهدة فمن نظر حق النظر وتفكر في هذه المشاهدات وتغيرها واختلافها وتأليفها وإفتراقها وما يعتريها من الزيادات والنقصان والحركة والسكون وإحتياجها إلى الأمكنة، علم علماً يقينياً أنها محدثة من خالق خلقها ومدبر دبرها، ، واخترعها، ومالك، فطرها، وصورها، وهو المختص بصفات الكمال، والعظمة والكبرياء، والجلال الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وهو الله الواحد القهار، فكيف بعاقل كامل مميز شاهد هذا الكون العظيم الذي يبهر الألباب، وتتحير فيه العقول بما اشتمل عليه من الصنعة المحكمة والتدبير، ويحكم أنه لا موجد له بل هو أوجد نفسه، أو بواسطة طبع غير معقول فهل يتصور أن هذه النجوم وسعة الهوى وما فيه من غيوم، وما هناك من قفار وبحار وليل، ونهار وظلمات وأنوار وشموس وأقمار وما هناك مما اشتمل عليه الفلك من النجوم السيارة وحدوث الظلام بعد النور وحصول النور بعد الظلام، وغير ذلك من التصرفات في هذا العالم من الإحياء والإماتة، واختلاف الأوقات بالحر والقر، كل ذلك هل يتصور متصور له أدنى فهْم أن ذلك كله وجد بلا موجد ومن طبع العلة، أو لغير ذلك من تهوسات الفلاسفة، ونحن في المشاهد ننظر الأمر الحقير الذي يتألف من أجزاء موجودة تحتاج إلى آلة ومزاولة أعمال لذلك فإنا نقطع ونعلم علماً يقيناً لا مخالطة ريب ولا شك أن الله الذي أوجَد هذا العالم ودبّر ما فيه من التصرفات والأمور الجاريات وحفظها بما أودع فيها، وما هيأ لها وما أوجد بينها وبين غيرها من أجناسها من العلاقات والروابط التي ربطت العالم العلوي بالعالم السفلي وجعلهما جميعاً يؤلفان نظاماً واحداً يرميان إلى غاية واحدة وإذا نظرت إلى ما بين تلك الأجزاء من العلاقات، وما فيها من دقائق الخفيات، والمناسبات وأنها متواخذة يمسك كل واحد منهم بحجزة الآخر وهي مَسُوقة للسير الدائم فلا تعرف السكون والهدوء والإستقرار بل نظامها وبقائها ببقاء

حركتها، وبذلك نعلم أيضاً أن لها مدبراً دبرها وحكيماً قدرها وسيرها وهو مع ذلك يكلؤها ويخفضها فلا يبطل شيء منها ولا يتغير ولا يغيب كل ذلك بقدرته التي يعجز الواصفون عن معرفة كنه هذه القدرة العظيمة، ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس لكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[1]، ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾[2].

العقل مع القرآن

إن أصحاب العقول في مختلف إتجاهاتها وتنوع تفكيراتها تكشف عن دقائق الحكمة الباهرة في مخلوقاته وتقف بالإنسان أمام أسرار عظيمة من الحكمة والإتقان، ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[3]، فالعقل مع القرآن يدلنا على خلق الإنسان الذي هو أعجب خَلْق الله وأفضل خَلق الله، ﴿**ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾[4]، ويدلنا على أول خلقه وابتدائه وفيه من عجيب الصنعة ما يعجز عن وصفه الواصفون، فقال تعالى ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[5]، فهذه تسمى آية الأطوار تُفيدنا أن للإنسان إبتداء وإنتهاء في الدنيا ورأيناه عياناً ووجدناه كما قال ووصف تعالى، فرأيناه يخلق من نطفة، ثم تصير النطفة علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً ثم تكسى العظام لحماً ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً رضيعاً قد أعد الله فيه وله جميع ما يصلح به دينه ودنياه قبل حاجته إليها تكبر بكبره فأعطى عينين للبصر، وأذنين للسمع، وأنفاً للشم، ولساناً للكلام، وفماً لإدخال الغذاء، وسبيلين لإخراج الأذى، ويدين للبطش واللمس، ورجلين للمشي إلى غير ذلك

---

(١) [غافر: ٥٧].
(٢) [فصلت: ٥٣].
(٣) [الذاريات: ٢٠-٢١].
(٤) [التين: ٤].
(٥) [المؤمنون: ١٢-١٤].

من الحواس الظاهرة، وغيرها مما خلق الله مما لا يستطيع ولا يهتدي الواصفون إلى وصفها ولا يعرف قدرها من عُرُوق منسوجة، ومعدة، وأمعاء للأغذية، وعصب، ودم، وجلد، وشعر، ولحم، قد ركب على عظام مفصلة بمفاصل بديعة ليمكنه القبض والبطش والتصرف، وجعل له الحواس الخمس ليكمل بها النعمة ولينتفع بها في جميع أصنافها يبصر المبصرات، ويسمع المسموعات، ويدرك المشمومات، ويذوق المطعومات، ويدرك الملموسات، ومع ذلك فقد جمع فيه الطبائع الأربع:

الحرارة، والبرودة، واليبوسة، والرطوبة.

فالجسم مركب من تسع طبقات لو اختلت واحدة منها لبطل نظامه، وهي: الشعر، والجلد، والشحم، واللحم، والعظم، والمخ، والدم، والعصب، والعروق، وفي البدن مائتان وثمانية وأربعون عظماً وثلاث مائة وستون عروقاً، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، ورأيناه يزيد شيئاً فشيئاً، ويكبر تدريجياً بطياً حتى يبلغ أشده، وقد أعطى العقل الزكي فعند ذلك يستنفع بجميع جوارحه فيما يصلح دينه ودنياه، فلمّا رأينا فيه أثر الخلقة العجيبة ورأيناه بعد أن لم يكن علمنا أنه محدث بالمشاهدة والعقل الضروري وإذا علمنا أنه محدث مصنوع، فبهذا الخلق العجيب يدلنا على أن محدثه عظيم قادر عليم وصانع حكيم: وهو: الله الذي لا إله إلاّ هو جلَّ جلاله فلا يقدر على هذا الصنع الذي حارت العقول دون معرفته، وعجزت الأفكار عن تفصيله، ووقفت الفصحاء عن تعداد عجائبه، وتبيينه فسبحانه جلَّ عن كل شأن **﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾**.

واعلم أن في القرآن ما يكشف للإنسان مع الفكر القويم، والنظر الصحيح السليم ما فيه تبصرة لأولي الألباب، ولذا كان الخطاب في القرآن موجهاً لأولي الألباب حين يقول جل وعلا **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**، ويتفكرون، ولقوم يوقنون، ويؤمنون ولأولي الألباب، **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**

فقنا عذاب النار﴾[1]، هذا وما أعرض معرض عن الله إلاّ وسببه الغفلة ومن وراء ذلك لعب ولهو، **﴿إقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾**[2].

واعلم أنا وجدنا في اختلاف النور والظلمة، واختلاف الليل والنهار من الحكمة الباهرة والنعمة الشاملة الظاهرة لجميع المخلوقين مما يضطر ذوي العقول، إن ذلك لفاعل مختار مدبر حكيم قاصد للنعمة والحكمة وإنك إذا فكرت في لون السماء وما فيه من التدبير العظيم حيث إنه جعل لونه من الألوان الموافقة للبصر ويعين على تقويته، ونظرت ما اشتمل عليه من الأنوار من الشموس والأقمار والنجوم السيارة في الليل والنهار، وفكرت إلى ما فيها من المنافع للخلق تجد من بديع الحكمة ما يعجز عنه وعن وصفه الواصفون فإن في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، فلولا طلوع الشمس لبطل أمر العالم ولما أمكن الناس يمشون في معايشهم ويتصرفون في مقاصدهم مع ما فيها من المنافع للأشجار وصلاح الزرائع والأثمار، من صلاح الأبدان لأنها تحرق المكروبات وتصلح الأكسجين الذي فيه صلاح الحياة وحياة الحيوان، ولو كانت الظلمة مستمرة لما صلح شيء من ذلك لما نشاهده في ما حبس عن الشمس من الحيوانات والنباتات، ففيها منافع لا تحصى مما نفهمه، وما لا نفهمه **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾**، وإن في غروبها منافع كثيرة لهدوء الناس وجميع الحيوانات والتخفيف على ذوي الأعمال الشاقات لولا ذلك لهلك الكثير من أهل الحرص والأطماع وذوي الحاجات إلى الأشغال، ولصلاح الزرائع والأثمار، ولو استمرت الشمس لفسدت النباتات، وحرق من حرها كثير الأشجار، ولذهبت وماتت الوحوش في القفار، ونضبت العيون والأنهار، قال تعالى: **﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار، فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾**[3].

---

(١) [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

(٢) [الأنبياء: ١-٢].

(٣) [يس: ٣٧-٤٠].

نعم وإن من المؤسف ما نشاهده من بعض المتخرجين من المدارس الإبتدائية والثانوية، بل وخريجي الجامعات من الأعمال التي نتجت من دراستهم السنوات الكثيرة التي كان المؤمل أن يكون المتخرج من هذه المدارس قد أحرز نصيباً وافراً من العلوم الدينية النافعة وعرف ربه معرفةً كاملة على الوجه الصحيح؛ لكنه خاب الأمل وانعكس بهم دولاب العمل، فإن غالبهم لا يحفظ القرآن وأكثرهم لا يصلي بل لا يعرف شيئاً من شروط الصلاة وفروضها وليس له من معالم الدين لا قليل ولا كثير بل قد أحرز شيئاً قليلاً من الجغرافية والهندسة والعلوم الدنيوية خالٍ من تغذية الدين وما يحتاجون إليه كمسلمين وإن هذا وفي الواقع من دسائس المستعمرين، ومن كيدهم الذي لا زال ولن يزال ضد المسلمين فإنهم قد زرعوا ما أرادوا بالوسائل التي تهدم الإسلام ليحصدوا ما أرادوه من الإضلال والإغواء، وقد حصدوا ولِمَا أرادوه قد حصَّلُوا؛ فإن التعليم في جميع مدارس المسلمين بمختلف وسائله يهدم الإسلام، وينقض عراه، مع ما ينشرونه من المجلات المغريات والصحف الفاتنات، وغير ذلك من أفلام التلفزيونات مما يطول شرحه وهو عند العاقل مفهوم.

أنظر إلى مواضيع من الدروس المطبوعة التي توزع في المدارس والمعاهد التي منها ما لا طائل تحتها ولا فائدة حتى في الأمثال والقصص، ومنها ما هو خلاف المعلوم يظهر لمن له أدنى مسكة، وإنك لتجد وتسمع ممن قد تخرج حتى من الجامعة نفثات يشم منها روائح الفلسفة الباطلة والطبائع العاطلة من تحقيق الأسباب والمسببات والكلام في أصول المحدثات من أن كل شيء يرجع إلى أصل يتولد عنه وإن الشيء من الشي، والشيء لا يعدم، ونحو ذلك من العبارات الهوساء، والتي تستمد من مصادر الطبايعية، والقائلون بأن العالم تولد من ذرات، كما يقوله الفلاسفة بأن أصول الأشياء الهيولا والصورة الكامنة، ونحو ذلك، وكما يقولون في الأمطار أنها من بخار الأرض ومن مستنقعات الماء، ونحو ذلك، وهذا مبني على أصلهم الفاسد؛ أنه لا شيء إلاّ من شيء وأن الشيء لا يعدم، فأحالوا خلق الماء في السحاب بل إن السحاب يتألف من البخارات ثم يمطر على خلقه من واسع فضله وملكه ويوجده من العدم بقدرته، بل قال الرسول الأعظم ﷺ: حين يخرج ليصيبه شيء من المطر (إنه قريب

العهد بربـه)، أي قريب الحدوث والوجود لأنه يقال قريب العهد بخالقه حيث إنه حدث منه ولو كان من البخار وقد تألف بين السحاب وعاد إلى محله الأول لما كان من قريب الحدوث، ويقال هل هذه الأمواج الكثيرة والأمواه الغزيرة التي توجد في أقرب وقت وتنزل من السماء وتسيل بها الأودية وتملأ الشعاب والقفار من البخار التي تصعد من المستنقعات إن ذلك من الأمر الذي يقضي بالعجب، والله يقول جل وعلا: **﴿ألم تر أن اللـه أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾**[1]، وقال تعالى **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾**[2]، وغير ذلك من الآيات التي تفيد أنه أنزله من السماء، ولم يذكر أنه أصعده من الأرض ثم أنزله من السماء ماءً، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما يفيد أنه يخلقه من العدم وأن الله يرسل الرياح فتتماوج السحاب بعضها ببعض وبعد ذلك تتمخض بالماء العذب الفرات الذي هو جنس غير أجناس ماء الدنيا التي خلقها اللـه في الأرض، في الآبار وماء الأنهار، وماء البحار، بل هو ماء عذب حيوي يحيي بها الأشجار، وتنبت منه الزرائع، وتتولد الأشجار بالثمار، فلا تحيا الأرض بمثل ماء الأمطار وإن سقيت بكثير من ماء الأنهار **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**[3].

نعم إن ذلك هو نتيجـة لعدم تقرير المناهج الدراسية على قواعد التوحيد وقواعـد الديـن الإسلامي الحنيف، وتعديل أو تحديد الدروس الأخرى، ويجب علـى ولاة الأمر أن يمنعـوا كلما يؤدي إلى تشكيك أولاد المسلمين في عقائدهـم الفطرية، وترك الأسباب التي تخل أو تؤدي إلى ترك الإهتمام بقواعد الدين الإسلامي على أن معرفـة الله وتوحيده، ومعرفـة عدله وصدق وعده ووعيده، هو أساس الدين وعموده، والذي عليه يبتنى القواعد الإسلامية، وأركان الإسلام الخمسة وهي: إقامة الصلاة، والزكاة، والحج، وصيام شهر رمضان، وشهادة ألاّ إله إلاّ الله.

---

(١) [الحج: ٦٣].
(٢) [الروم: ٤٨].
(٣) [ق: ٣٧].

هذا، ولأن القواعد الطبايعية، والمادية، وقواعد الفلاسفة تؤدي إلى الإلحاد والتعطيل إلى بطلان شكر المنعم على أصول النعم وفروعها، ولأنهم مع عدم المعرفة بالله بيقين تدخل الشبهة المزورة في أذهانهم، وداعي الفساد مجاب، وله قبول عند الأدباء والطلاب؛ وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾[1]، حيث أنهم يضيفون الرياح والسحاب والنجوم والأنوار والأمطار إلى الطبائع كما كانت الجاهلية، ولذا قال الرسول ﷺ في تفسير الآية الكريمة (ألم تعلموا ما قال ربكم في هذه الآية، ما أُنْعِمَ على عبادي نعمة إلاّ أصبح فريق منهم كافرين، فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب، وأمّا من قال مُطرنا بنَوٍّ كذا وكذا فذلك الذي آمن بالكواكب وكفر بي)، أخرجه مسلم، وغيره من طرق كثيرة عن بضعة عشر صحابياً.

فمن ينسب الرياح إلى الطبيعة، ونحو ذلك، فذلك أبعد مع عدم نصب القرينة إن أراد المجاز.

نعم، إنك لن تجد الحياة السعيدة، والفوز بنعيم الآخرة إلاّ في ظل الإسلام مع تطبيق قواعده الرشيدة، ولن يحصل الدفاع للشيوعية وغيرها ممن يريد هدم قواعد الإسلام إلاّ بتصحيح العقيدة والإلتزام بالمبدأ الصحيح، والإلتزام بمبادئ الدين الحنيف وإلاّ فمع عدم الدين والحاجز المتين فقريباً ما تقترفه أهواء المضلين وينخرط في سلوك كل هوى ويتبع الشهوات ويسلك طريق الضلالات؛ نسأل الله تعالى أن ينور القلوب لإتباع آيات الكتاب ولسلوك منهج السنة والصواب، والتوفيق لإصابة الحق والصدق وهذا شيء عارض جرَّ إليه السياق؛ فلنعد إلى ما نحن بصدده بعون الله تعالى.

التفكير في المخلوق

قد سبق أن الطريق إلى معرفة الله وسيلتان، العقل، والقرآن، بواسطة النظر والتفكير، والمطلوب من العقل هو أن يلزم وظيفته التي هي التفكر، والتفكر المطلوب هو التفكر في آلاء الله، والتدبر لمعاني كتاب الله وإجالة الفكر نحو المخلوقات والتدبر لعجيب صنع الله فاطر السموات والأرض وما اشتمل عليه

---

(١) [الواقعة: ٨٢].

العالم من تفاصيل القدرة الباهرة، والقوة الظاهرة لينتج عن ذلك معرفة صانعها ومدبرها ولا سبيل إلى معرفة الله حقاً إلاّ التفكر في آلاء الله ومخلوقاته، والتدبر في عجيب مصنوعاته وقد نبهنا القرآن على ذلك، وبيّن لنا السبيل وأوضح الطريق والدليل، وإذا كان الإسلام قد دعى إلى التفكر وأوجبه فإنما أراد أن يكون ذلك في دائرة نطاق العقل وحده وفي مجال مداركه وذلك هو في كل المخلوقات في السموات والأرض وفي الإنسان نفسه وفي الجماعات البشرية ومختلف أنواع الحيوانية، وحظر عليه التفكر في ذات الله فوق ما أعطي من الإدراك وذلك خارج عن نطاق العقل، وقد روي عنه ﷺ: (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) أهـ.

هذا، وقد دلّ على ذاته بما أودع في بديع مخلوقاته، وما أوضحه في عجيب مصنوعاته، وقد أشار القرآن ودلنا على النظر في مجالات الكون الفسيحة، وآفاقه الرحبة الوسيعة، التي لا تحد بحد، ولا تحصر بعد، ولا تقف عند نهاية، وإن النظر في الحق يهدي إلى منافع كثيرة ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره، وعليها تتجلى أنواره، وتتفتح لك صفاته، ومخالفة الأنظار في الكون إنما هو في تصارع الحق والباطل، وبالنظر الصحيح والفكر القويم الصريح، لا بدّ وأن يظفر بالحق، ويعلوا على الباطل فيدمغه ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون**﴾.

وللّه درُّ القائل:

فيا عجباً كيف يُعصى ... الإلَهُ أم كيف يجحده الجاحد

وللّه في كل تحريكة ... وتسكينة في الورى شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

واعلم أن الله سبحانه لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يعرف إلاّ بآياته وبيناته من خلقه، قال بعض العلماء:

[من عَجَّز نفسه على أن تُدْرِك الحواس باريها ثبت له التوحيد]. وفي معناه:

العجز عن درك الإدراك إدراك

والبحث عن فحص كنه الذات إشراك

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنة [بصنعه يستدل عليه، وبالعقل يعتقد معرفته، وبالفطرة ثبتت حجته، دليله آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه] أهـ.

واعلم أن الإنسان يعجز عن إدراك الكثير من الموجودات رغم أنه مع عجزه يتطور ويتطلب ما لا يقدر على معرفته، تارة يريد أن يعرف نفسه، وهل هي عرض أو جوهر، أو هي قبل الجسم أو بعده، وهل هي في جسمه أو مجرده؛ وكل هذه لا يصل إليها العقل، ولا إلى إثبات شيء منها يتفق الاتفاق عليه، وإنما مبلغ جهده أن يعرف أنه موجود حي له شعور وإدراك، ونحو ذلك، وهو لا يقدر على أن يعرف ماهية النفس والعقل، وكيفية علمه وإدراكه وعوارض الحواس، ونحو ذلك مما اشتمل عليه تركيبه، وكيفية علمه ولن يجد إلى ذلك سبيلا؛ وهذا العجز هو الدليل على التركيب العظيم المحكم وتفصيل البنية البشرية وما اشتملت عليه من العجائب الملكوتية تحتاج إلى شرح طويل، ومجال التفكير واسع مع الإقرار بأن هذا صنع الواحد القهار؛ ولا قوة إلاّ بالله.

النَّهي عن التفكير في الله تعالى

إعلم أنه لا طريق للعقول إلى معرفة كنه الله تعالى، ومعرفة ذاته جل وعلا لا ظناً ولا جزماً، وإنما الطريق إلى معرفته والعلم به تعالى هو التفكر في مصنوعاته ومخلوقاته التي تدل على وجود موجدها؛ فيجب على العاقل أن يردع نفسه عن الوسواس والتفكر في ذات الله لأنه خوض فيما لا يوقف له على حد، بل لا يؤمن معه الخروج من التوحيد إلى الإشراك، أو الإلحاد، ومن الإيمان إلى الكفر والتعطيل؛ نعوذ بالله، قال رسول الله ﷺ: (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق)، أخرجه الإمام القاسم بن محمد، والدارمي، وأخرج عن عائشة مرفوعاً (أن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول من خلقك؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فيقول: آمنت بالله ورسوله فإنه يذهب عنه)، وأخرج البخاري، ومسلم، وأبوداود عن أبي هريرة موقوفاً (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله فمن وجد شيئاً من ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله)، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنة [من تفكر في الله ألحد، ومن تفكر في المخلوق وحَّد]، وروي بلفظ

[مـن تفكر في المصنوع وحد، ومن تفكر في الصانع ألحد]، وأخرج الدارمي في مسنده عنه ﷺ (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) وقـال أمير المؤمنين عليه السلام [أتقوا أن تمثلوا الرب بشيء إنه لا مثل له، أو تشبهوه بشيء من خلقه فإنَّ لِمَنْ فعل ذلك ناراً لا تُطفأ أبدا].

واعلم أن أعظم دليل يدلنا على الله هو حدوث هذا الكون، وذلك محتاج إلى نظر صحيح، وكلما صح النظر والتفكير إزداد علماً، وكلما تقدم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعاً إذ وضوح الدلالة وتعاضدها لا تبقي مجالاً للشك. والأوهام، إن العقل الذكي والبحث النزيه والفكرة الصحيحة المبرأة عن الغرض المستقيمة عن النهج توصل بأصحابها حتماً إلى الله تعالى وتوقفهم خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمة الله وجلاله ومعرفة الله أيضاً مركوزة في طبع كل إنسان واسمها الكريم معروف في كل لغة على إختلاف الأجناس والألسنة، ولم يصرف الأفئدة والأفكار عن هذه الحقيقة الواحدة صارف، وإن المعرفة المتصلة لم تأخذ إمتدادها الكامل وتتبرأ من الأوهام، وتبتعد عن الأهواء إلاّ عندما يتلقاها الناس مصفَّاة من ينابيع الوحي، وقد أوضح لنا القرآن الكريم القدر الضروري الذي يسد حاجتنا ونبلغ به رشدنا، وصلاحنا وإيماننا في هذا المقام، فجعل الله العظيم ذاتاً متصفة بالعلم والقدرة والإرادة والعظمة والجلال والكبرياء والكمال، وغير ذلك من الصفات التي تليق برب العالمين، فالله جل جلاله **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** لا يقاس بالناس ولا يدرك بالحواس، قال الوصي، صلوات الله عليه (إنه لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، لا بذي عظم، تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً، ولا بذي كبر إمتدت به النهايات فكبرته تجسيماً) وقال أيضاً (العقل آلة أُعطيناها لإقامة العبودية، لا لإدراك حقيقة الربوبية، فمن استعملها لإدراك الربوبية فاتته العبودية، ولم ينل الربوبية، ويلزم من مفهومه، ومن استعملها لإقامة العبودية أدرك معرفة الربوبية).

قال ابن أبي الحديد:

والله لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمد

علموا ولا جبريل وهو إلى محل القدس يصعد

كلا ولا النفس البسيطة لا ولا العقـل المجـرد

من كنـه ذاتك غير أنـك واحـدي الذات سرمد

ولتخسأ الحكماءُ عن حُـرمِ لـه الأفـلاك سجـد

من أنت يا رسطـو ومـن أفـلاطَ قَبلك يا مبلـد

ومن إبن سينـاء حيـن مـرد مـا بنيت له وشيـد

هل أنتم إلاّ الفـراش رأى الشهـاب وقد توقـد

فدنـا فأحرق نفسه ولو اهتـدى رشداً لأبعـد

وقال أيضاً:

فيـك يـا أعجـوبـة الكـون غـدا الفكـر كليـلا

أنـت حيـرت ذوي اللـب وبلبلـت العقـولا

كلمـا أقـدم فكـري فيـك شبـراً فـر ميـلا

ناكصاً يخبـط عميـا لا يـهـدي السبيـلا

وقال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه: (فانظر أيها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فأتم به، واستضيء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في القرآن فرضه، ولا في سنة النبي ﷺ وأئمة الهدى أثرة، فكل أمره إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك.

واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن إقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله إعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحـث عن كنهه رسوخـاً، فاقتصر علـى ذلك، ولا تقـدر عظمـة اللـه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

واعلم أن التفكر في ذات الله من أعظم المهالك، ومن سلوك أخطر المسالك، فيجب التوقف على ما أوجب الله عليك، ولا تتقحم سدداً مضروبة، فإن ذلك فوق نطاق العقل، وخلف العقل وورائه، فالعقل قاصر عما هنالك، وهو يجهل مما هو آلة لـه، وفيه، وقال عليه السلام:

كيفية النفس ليس المرأ يدركها

فكيف كيفية الجبار في القــدم

هو الذي أنشا الأشياء مبتدعــا

فكيف يدركه مستحدث النعــم

وقال ابن عباس حين سئل كيف عرفت ربك فقال: «عرفته بما عرّف به نفسه من غير روية وأصفهُ بما وصف به نفسه من غير صورة لا يعرف بالحواس، ولا يقاس بالناس؛ معروف بغير شبيه» أهـ.

وقال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه في الجنة [الذي ابتدع الخلق على غير مثال ولا مقدار إحتذا عليه من خالق معهود كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمسالك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته، وإعلام حكمته، فصار كلما خلق حجةً له، ودليلاً عليه وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة] أهـ.

وقال في وصيته لإبنه الحسن عليه السلام [واعلم يا بني إن أحب ما أنت آخذ به من وصيتي تقوى الله،والإقتصار على ما فرض الله عليك، والأخذ بما فرض الله عليك، وبما مضى عليه أولوك من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن ينظروا لأنفسهم ما أنت ناظر، وفكروا كما أنت مفكر، ثم ردهم إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عما لم يكلفوا]. . . إلى قوله [واعلم أن أحداً لم ينبي عن الله عز وجل كما أنبأ محمد ﷺ فأرض به رائداً، وإلى النجاة قائداً] أهـ.

التوحيد

إن الأديان كلها تدعو إلى توحيد الله تعالى حيث أن القرآن أخبرنا أن الله لم يرسل إلاّ بالدعوة إلى توحيد الله، ولهذا خاطب رسول الله ﷺ بقوله ﴿**وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلاّ يوحى إليه أنـه لا إله إلاّ أنا فاعبدون**﴾[1]، والرسول

---

(١) [الأنبياء: ٢٥].

ﷺ دعى اليهود والنصارى إلى التوحيد: ﴿**قل يـا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللـه**﴾[1]، إن أول من شهد لله بالواحدانية الله جل وعلا، وأعظم خلقه ملائكته، وأفضل خلق الله بعد الأنبياء وهم العلماء، قال الله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم**﴾[2].

وحقيقـة التوحيـد هو: إعتقاد أن الله واحد لا شريك له مع التكلم بصيغة التوحيد، وهو: الشهادة بلفظ «**أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له**»، قال بعضهم حقيقة **التوحيد** هو: إثبات الوحدة لله في الذات والصفة وأنه وحده جل وعلا المتصف بصفات الكمال التي لا يشاركه فيها غيره.

واعلم أيها المكلف أنه يجب عليك توحيد الله، والتوحيد هو أول أركان الإسلام فيجب عليك أن توحـد الله تعالى وتعتقد ذلك إعتقاداً صحيحاً لا يخالطه شك ولا ريب.

ومعنى كلمة التوحيد هو: إثبات الإلهية له جل وعلا ونفيها عن غيره بالإعتقاد الصحيح، وإذا كان ذلك صادراً عن المعرفة الصحيحة فهو التوحيـد الصحيح، وصار العبد بذلك مسلمـاً وبالله عارفاً موقناً.

ومعنى **الإلهية** هو: كونه إلهاً يولَّه إليه العباد، ويصمد ويقصد بالعبادة، ومعنى يولَّه إليه أي يرجع إليه ويفزع إليه في الملمات.

ومعنى **التوحيد** هو: إثبات الإلهية لله تعالى دون غيره، وهذا مأخوذ من لفظ التوحيد.

والواجب على المكلف هو إعتقاد أن الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا متفرد بصفات الكمال، وأنه ليس بجسم، ولا عرض ولا يحل ولا يُحل ولا تحويه الأمكنة ولا تجري عليه الأزمنة ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.

وحقيقة **التوحيد** بالمعنى الأعم الجامع: ما قاله أمير المؤمنين كرّم الله وجهه

---

(١) [آل عمران: ٦٤].
(٢) [آل عمران: ١٨].

[التوحيد ألاّ تتوهمه]، وهذه كلمة رائعة ولأنواع المعاني جامعة فمن تصوره أو توهمه بأن يتوهم الخواطر بتمثيل أو تكييف فقد خرج عن التوحيد، وكلما توهمه المتوهمون، أو تصوره المتصورون فالله بخلافه، قال بعض العلماء: مشيت ألف فرسخ وسألت عالما عن التوحيد والعقل، فقال: «التوحيد أن تعلم أن كل ما حكاه الوهم أن الله بخلافه، والعقل أدناه ترك الدنيا، وأعلاه ترك التفكر في ذات الله تعالى»، وقال القاسم (ع) «من عجز نفسه عن إدراك الحواس باريها ثبت له التوحيد»، وقال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه في الجنة [بصنعه يستدل عليه، وبالعقل يعتقد معرفته، وبالفطرة ثبتت حجته؛ دليله آياته، ووجوده إثباتـه، ومعرفتـه توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه] أهـ.

وقال أحمد بن يحيى الهادي (ع) في بعض خطبه «فسبحان الذي فطر الإنسان على معرفته، ومنعها الإحاطة بكيفيته، وأنطق الألسنة بوحدانيته، وأكلَّها عن مبلغ صفته، واحتج بالعقول على ربوبيته، وأحجبها عن إدراك ذاته فتعالـى اللـه الـذي ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام» أهـ.

واعلم أن الوحدة لله ثابتة ذاتاً وصفة ووجوداً وفعلاً، أما الوحدة الذاتية فلإمتنـاع التركيب فـي ذاته لأنه ليس بجسم ولا عرض كما بيناه، وأما الوحدة في الصفـة فلأنها تابعة لمرتبة الوجود، وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات تأمل.

وأما الوحدة في الوجود فلأنه قد ثبت أنه واجب الوجود، أزلي قديم، وليس له ند ولا شبيه ولا كفوٌ ولا مثيل، وأمّا الفعل فلأنه موجد الممكنات، وصانع المخلوقات من العدم، ولا يقـدر على ذلك إلاّ هو، ولو اجتمع الخلق جميعـاً على إيجاد خردلة أو مثقال ذرة مـن العدم لما قدروا على ذلك، والدليل على ذلك أنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل واحد مصنوع، وفعل يخالف فعل الآخر بالضرورة، وإلاّ لم يحصل معنى التعدد لأن الصفة الذاتية الثابتة للذوات تختلف بإختلاف الذوات بالضرورة، مثل العلم والإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها لأنه لا بدّ أن يكون العلم والإرادة ملائمة للذات، والمفروض أن التخالف ذاتي لأن الصفة في حقها ذاتيـة واجبة الوجود، وفعل واجب الوجود يصدر عنـه على حسب إرادته وعلمه، فيكون فعل كل واحد صادر عن

علم وإرادة تخالف فعل الآخر مخالفة ذاتية، فتتخالف الأفعال بتخالف العلم والإرادة وهو خلاف يستحيل معه الوفاق بالضرورة، وكل واحد على فرض أنه واجب الوجود له السلطة على الإيجاد في جميع الممكنات، وقادر على جميع المخلوقات، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فيتمانع أفعالهما لإختلاف العلم والإرادة وسائر الصفات فيفسد نظام العالم، بل يستحيل وجود شيء من الممكنات للتضارب في العلم والإرادات، وصدق الله في قوله: ﴿**لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا**﴾، وهذه الآية صريحة أنه لو كان مع الله غيره لفسد نظام العالم لإختلافهما ضرورة، والفساد ممتنع بالضرورة، فثبت بأنه تعالى واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في الوجود، ولا في الصفات، ولا في الأفعال، وهذا تفصيل بديع يحقق معنى الآية ويبين صدقها.

هذا وسيأتي لهذا البحث زيادة إيضاح إنشاء الله تعالى؛ والله ولي التوفيق والهداية.

إن الله واحد لا إله إلاّ هو

الله واحد لا ثاني معه، وهو المتفرد بصفات الكمال والكبرياء والجلال لأنه لو كان معه إله ثان لوجب أن يشاركه في صفات الذات على الحد الذي اختص به جل وعلا، ولو كان كذلك لكان كل واحد قادر على ما قدر عليه الآخر، ولو فرض ذلك لوقع التشاجر والتنازع ولصح التعارض والتمانع من حيث إن شأن الإلهية الكبرياء والعظمة، وقد فرض أن كل منهما في غاية الكمال والكبرياء والعظمة فإذا كان إثنين لم يكن أحدهما مختص بما ذكر، فلا بد من حصول التضارب والتمانع، ودليل آخر يقول: لا يخلو هذا المفروض وجوده مع الله إله، إما أن يكون دونه منزلة ومكانة فليس بإله، وإما أن يكون أعلى منه فهو أحق منه بالإلهية، وأما أن يكون مثله فما هو الجامع بين علميهما وإختصاصهما فلا يمكن بلا جامع وكيف ينفذ أمرهما في الخلق والإحياء والإماته وعلمهما وإرادتها مختلفان ضرورة لاختلاف ذواتهما، وقد نبه الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون**﴾[1]، تضمنت هذه الآية أن الله

---

(١) [المؤمنون: ٩٠].

سبحانه لم يتخذ ولدا لإستلزامه إنفصال الولد عن أبيه وذلك يقتضي التركيب المحال على الله تعالى، ولأن الولد يجانس أباه ويشابهه ويماثله والله ليس كمثله شيء وتعالى عن الولد والوالد.

وثانياً إن الله سبحانه لا ينبغي أن يكون معه إله يشاركه في الإلهية ويخلق معه **﴿إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض﴾**، أي غالب بعضهم بعضاً ليوسع ملكه، ولو حصل هذا لفسد نظام العالم، كما صرحت بذلك الآية، وقضية العقل تقضي بذلك **﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا، سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً﴾**[1]، يزيد ذلك وضوحاً أنه لو وجد ذات تشبه ذات الله تعالى متصفة بصفات الإلهية لوجد إلاهان، ولو وجد إلاهان لأمكن الخلاف بينهما، أو وجب كما سبق تفصيله، فكان يريد أحدهما إيجاد شيء والآخر خلافه، فإن نفذ مرادهما معاً لزم إجتماع النقيضين، واجتماعهما باطل وهو وجود شيء وعدمه في حالة واحدة، وإن لم ينفذ مرادهما معاً لزم عجزهما فلا توجد هذه الكائنات، وعدم وجودها باطل بالمشاهدة، وإن تقدم مراد أحدهما وعجز الثاني كان من نفذ مراده هو الإله دون من عجز، على أن عجز من لم ينفذ مراده يثبت للآخر، لأن الفرض أنهما مستويان، وما ثبت لأحدهما ثبت للآخر أو للثاني، وإذا بطل جميع ما تقدم بطل ما أدى إليه وهو تعدد الإلهية، ووجب كون الله هو الواحد المنفرد بصفات الكمال عن الحقيقة.

والله ولي التوفيق.

قال تعالى: **﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله هو فأنّى تؤفكون﴾**[2]، قال بعض أهل التحقيق في إرتباط الإنسان بالعالم، وإنك إذا تأملت في هذا الكون العظيم، ونظرت نظر المستبصر السليم، ونظرت في تدبير هذا العالم وجدت أنه خلق بإرادة واحدة لا بإرادتين، وربطت أجزائه حكمة حكيم واحد، لأن هناك تدبيراً شاملاً موجدا لكل مخلوق ضمن هذا التدبير، وهو واحد عليم

---

(١) [الإسراء: ٤٢-٤٣].

(٢) [غافر: ٦٢].

قادر حكيم، وإذا تأملت وجدت العالم كله مرتبط بعضه ببعض، فتركيب الإنسان إذا فكرت وجدت المعدة متصلة بالجهاز الهضمي، والجهاز الهضمي مرتبط بالجهاز الدموي. والجهاز الدموي مرتبط بالجهاز التنفسي، والجهاز التنفسي مرتبط بالجهاز العصبي، والجهاز العصبي مرتبط بالجهاز العضلي، والجهاز العضلي مرتبط بالعظام، والعظام مرتبطٌ بالجهاز كله، ولا قيمة لأي جزء في الإنسان إلاّ بارتباطه بباقي الأجزاء، وهذا دليل على أن تركيب الإنسان البشري خلقت من خالق واحد وبإرادة واحدة لا بإرادتين، وعلى هذا فالأنسان مرتبط بالأرض وما فيها من التراب والنبات، كما أن الإنسان مرتبط بالأمطار الذي فيها حياة العالم، والهواء يحتاج الإنسان إليه للتنفس، والشمس تعمل لصلاح جميع ما في الأرض، والجاذبية تمسكه من أن يلقى في الفراغ. فلا حياة للإنسان إلاّ بهذه المخلوقات، والأرض مرتبطة بما في الأفلاك من الشموس والأقمار والنجوم بحكمة الواحد القهار.

ومن هذا الإرتباط المحكم الدقيق بين الأجزاء كلها نعرف أن إرادةً واحدةً هي قضت بهذا العالم، ونعرف أن له خالقاً واحداً هو الذي أحكم هذا التدبير العجيب، والنظام المنسق الذي عجزت العقول عن مدارك هذا التدبير والاتساق والإرتباط المتزن بالقوانين المتكاملة المتعاونة والمتناسقة التي خضع لها ما في الكون، فانتظم سيره، وقام بناؤه، وثبت كيانه، واستقرت أحواله، إنها لقد صدرت من قادر حكيم وواحد عليم الذي له ملك السموات والأرض وهو بكل شيء عليم، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم.

إن المتفكر اللبيب، والمتدبر الأديب لهذا الكون العجيب يرى أن فيه وحده ما يدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدةً بعلم واحد، وإرادة واحدة قد أوجدته، ومظاهر هذه الوحدة كثير منها التكامل في أجزاء هذا الوجود الذي يدلنا بدقة على أن خالقاً واحداً قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل، ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾[1]، إذا عرفت هذا علمت علماً

---

(١) [الملك: ٣-٤].

يقيناً وحدة الله المطلقة الجامعة لصفات الكمال الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، وقال بعض العلماء «وما قال بالتعدد إلاّ عن عقلية ابتدائية، وفكرة وثنية، وتصور خيالي، مصطنع بعيد عن التحقيق، مصادم للعقل الزاكي»، ولم يبق الآن من يلتزم بالعقل والمنطق، وإلاّ فإن التحقيق لا يرشد إلاّ إلى التوحيد، بريًا من صفات الحوادث كالإلصاق، والتفريغ والولادة فكما أن التعدد باطل فطرّوه من بعد أشد بطلاناً وأقبح، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالتشبيه، والتثليث، وغيرهما على الرغم من إقامة كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة، بكل أسف ولو رجعوا قليلا إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هنا كل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان، وصراحة الحجة وثورة العقل على هذا التناقض المشين، فليت شعري متى يثور مفكروا العالم الأحرار، وعقلاؤه المتجردون عن هذه الوثنية النكراء فيمزقوا غشاء العنكبوت، ويقودوا العالم إلى التوحيد والقرآن الكريم، لقد حمل لواء التوحيد ونص على ما تقدم من تقييد التعدد وبطلانه وتوكيد التوحيد وثبوته في آيات كثيرة حملت أنصع برهان وأقوى بيان إلى آخر كلامه.

الله حي موجود

إذا نظرنا إلى هذا الكون العجيب، وما فيه من التدبير العظيم الذي دق عن مدارك العقول، وبعد عن فهم ذوي الألباب، وما يحدث فيه على جهة الإستمرار، وما يتجدد من التغيرات والتحولات، وما يجري في الليل والنهار من التصرفات، ومن الإحياء والإماتة ومن ترادف الأرزاق وتغيّر أحوال العباد، ومن الإحاطة بجميع الكائنات من الحفظ والكلاءة، ومن مطالع الأنوار، وأفولها وتعاقب الليل والنهار، وما يجري فيهما، وما يحدث في اللحظات والساعات إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول شرحها ويبعد تفصيلها.

نعلم علماً يقيناً لا شك معه ولا ريب أن خالق هذا الكون والمتصرف فيه في كل أونة وفي كل طرفة ولحظة، حي موجود بأبلغ عبارة، حياة أزلية، ووجود أزلي، والحياة والوجود متلازمان فلا حياة إلاّ في موجود.

وإنا نعلم علما يقيناً أن العدم لا تأثير له أصلاً.

ونعلم علماً يقيناً أن خالق هذا الكون موجود وحي لا يزل، لاحتياج هذا العالم بأجمعه إلى خالقه في كل وقت وزمان، وهذا أمر عقلي ضروري وبديهي يقيني لا يحتاج إلى استدلال، ولا تفصيل ولا تطويلِ مَقال، ﴿**ألم الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق**﴾[1]، ﴿**الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين، هو الحي لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين**﴾[2]، إن الحي أفضل حالة من الجماد، وإذا كان كذلك مع علمنا بعجز الميت والجماد نعلم بذلك قطعياً أن خالق العالم حي وحياته أكمل الحياة، وما مظهر الحياة المشاهدة إلاّ أثر ضئيل لحياة الحي القيوم الذي ينفخ الروح في الميت فيهتز، وفي الجماد فيتحرك، فحياة الله كاملة أزلية، وليست مشروطة بوجود أسباب، إن الله حي لذاته ولْتعرف أن الله حي كامل الحياة لا تتوقف حياته على أسباب كما أن حياته كاملة حياة لذاته لا يهددها أسباب الموت والإعدام، وبهذا يقطع العقل ببديهته ويحكم به العقل بفطرته، وبهذا أخبرنا الرسول الصادق الأمين ونطق بذلك الكتاب العزيز: ﴿**وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده**﴾[3]، ﴿**كل شي هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون**﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على أن الله تبارك متصف بالحياة الكاملة التي ليس أكمل منها، بل حياته سبحانه وتعالى من صفته الذاتية الواجبة، ودليل ذلك العقل الضروري، لأنه إذا قد ثبت منه الفعل، وقد عرف عقلاً أنه لا يصح الفعل من معدوم ولا جماد فلا بد أن يكون الفاعل حياً وقادراً وذلك من ضروريات العقل، وقد صح وثبت بدلالات العقل والنقل أن الله سبحانه هو خالق السموات والأرض وما بينهما، ولا زالت المخلوقات تتعدد، وتتكاثر، وتنمو، وتزيد، وتنقص، والحوادث جارية في جميع الأوقات، والتصرف في العالم والتدبير المحكم ساري المفعول في كل وقت وأوان.

---

(١) [آل عمران: ١-٣].
(٢) [غافر: ٦٤-٦٥].
(٣) [الفرقان: ٥٨].
(٤) [القصص: ٨٨].

هذا، وإذا نظرت إلى الأفلاك العظيمة، والشمس، والقمر والنجوم وسائر الكواكب السيارة تجدها في مطالعها جارية، وفي خدمة ذي الجلال كائنة رائحة وغادية، وليس لها وقوف ولا سكون فمن يدبر ذلك: ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكلٌ في فلك يسبحون**﴾[1]، هذا ومن يمسك السماء أن تقع على الأرض: ﴿**إن الله يمسك السماء والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفورا**﴾[2]، ومن يسوق الرزق إلى جميع الحيوانات ويبسط ويقبض: ﴿**يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاّ هو فأنّى تؤفكون، وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور**﴾[3]، ومن ينشيء السحاب وينزل الأمطار: ﴿**والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور**﴾[4]، ﴿**الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾، وإذا نظرت إلى ما في الأرض من النبات والأشجار والأثمار المتداولات، والمتعاقبات، والمتحولات من حالة إلى أخرى وما يعتري الأرض من التغيرات من جدب، وخصب واهتزاز الأشجار بالأمطار، ونمو النبات في كل وقت، فمن يفعل ذلك ويدبره ويحسنه ويغيره ومن يداول بين ذلك ويقدره إن ذلك هو الحي القيوم وهو العزيز الحكيم: ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير**﴾[5]، ﴿**وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلف أكله**﴾[6]، ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير**﴾[7]، ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في**

---

(١) [يس: ٣٨ -٤٠].
(٢) [فاطر: ٤١].
(٣) [فاطر: ٣-٤].
(٤) [فاطر: ٩].
(٥) [الحج: ٦٣].
(٦) [الأنعام: ١٤١].
(٧) [فصلت: ٣٩].

الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾[1]، ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾[2]، ﴿والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾[3]، وإذا نظرت إلى ما احتوت عليه الأرض من جميع الأنعام وأنواعها، وتناسلها، ونموها وكثرة الوحوش على اختلاف أنواعها، وكثرة تعدد أجناسها، واحتياجها إلى ما يقوم بحياتها من أكلها وشربها وجميع حاجاتها، فمن يدبر أمرها ويصرف رزقها ويعود عليها بجميع متطلباتها ذلك هو العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون﴾، ﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾[4]، وإذا نظرت إلى السحاب ونزول الأمطار على أوقات معلومة، وأحيان مختلفة، وعلى تقدير محتوم، وبقدر معلوم، تجد في ذلك من أعظم التدبير وحسن التقدير لفاعل عظيم، حي موجود، قال تعالى: ﴿وما ننزله إلاّ بقدر معلوم﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾[5]، فمن ينشيء السحاب، ثم يخرج الودق من خلاله، ذلك الحي القيوم فاطر السموات والأرض لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[6]، وإذا نظرت إلى الجنس البشري وتناسله وخلقه في بطن أمه، وحالته عند تصويره، ونفخ الروح فيه وهو في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وتطوره من حالة إلى أخرى، ثم خروجه من بطن أمه في حالة ضعيفة وهو لا

---

(١) [الزمر: ٢١].
(٢) [الحج: ٥-٦].
(٣) [النحل: ٦٥].
(٤) [هود: ٦].
(٥) [الروم: ٤٨].
(٦) [النحل: ١١].

يزال ينمو ويكبر قليلاً، ويزداد في جسمه وحواسه إلى أن يبلغ منتهاه، وحلول أجله في أجل معلوم، بعضهم يموت صغيراً، وبعضهم شاباً، وبعضهم كهلاً، وبعضهم شيبة ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ فمن يدبر ذلك ويرزقه ويبتليه، وبعضهم بالأمراض الشديدة والضعف المتناهي، وبعضهم يرزقه كثيراً، وبعضهم قليلاً، إلى غير ذلك مما يطول شرحه، قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[1]، ﴿**خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون**﴾[2].

نعم لقد قامت الأدلة الواضحة والآيات الباهرة الصريحة على أن ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءه صانعاً حكيماً قادراً عليماً، وهو مفهوم بديهي عقلي عند الذي يؤمن بمبدأ السببية إيماناً عقلياً لا يحتاج إلى إستدلال لأن الفطرة تدرك إدراكاً مباشراً أن لها رباً عظيماً موجوداً: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[3]، فحياة الله هي مصدر الحياة وهو واهبها لكل حي فيتحتم أن يكون متصفاً بالحياة في أكمل صورها وأشمل معانيها وهو حي حياة ذاتية، لا بتغذية طعام وشراب: ﴿**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ قل إني أُمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين**﴾[4]، وهذه الآية تقفل باباً كان يلجه الملحدون والكهنة المشركون لاستغلال الذبائح والشعائر يزعمون أنها لله تعالى وتقدم قرباناً في المعابد ليستفيد منها الكهنة وحدهم لأن الله لا يأكل شيئاً، وبهذه الحقيقة تحرر الإنسان البشري المؤمن من هذه الأباطيل التي لا يزال البعض يفعلها أو شيئاً مما

---

(١) [المؤمنون: ١٢-١٤].
(٢) [الزمر: ٦].
(٣) [الروم: ٣٠].
(٤) [الأنعام: ١٤].

يقرب منها مهدرين بذلك أموالهم وإنتاجهم عبثا، ومثل ذلك ما حكى الله عن بعض المشركين ورادّاً عليهم بقوله: ﴿**فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون**﴾[1]، قال أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه، «أيها المخلوق السوي، والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار، بدأت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين معلوم وأجل مقسوم، تمور في بطن أمك جنيناً لا تحير دعاء، ولا تسمع نداء، ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لإجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة موضع طلبك وإرادتك،، هيهات إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد» أهـ.

فهذا كلام بديع وتفصيل يأخذ بمجامع القلوب ويدلُّك على التفكير في صنع الله علام الغيوب وأن هذا الخالق العظيم الذي أوجد هذا التدبير المحكم الذي اشتمل على حسن التقدير الذي يعجز عن وصفه الواصفون وتبعد عن تفصيله ألسنة المتكلمين وكلما في العالم من الحيوانات، وغيرها من كل ذوات الأرواحَ يدبرها ويصرف أمرها على أحسن تقدير وأبلغ تدبير، ﴿**إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا**﴾[2]، يدبر الليل والنهار والشموس والأقمار وكل ما في البر والبحار، ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار**﴾.

وهكذا القرآن يدلُّك على أيات عظام وينبهك على صنع ذي الجلال والإكرام ويحثك على النظر والتفكر في كل ما في العالم من تصرف وتدبير وترصيف وتقدير، وقال تعالى: ﴿**نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرأيتم ما تمنون، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشأكُم في مَا لا تَعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**

---

(١) [الأنعام: ١٣٦].

(٢) [فاطر: ٤١].

أفرأيتم ما تحرثون، ءأَنْتُم تَزْرَعُونَه أَمْ نَحْنُ الزارعون، لَوْ نَشَاء لجعَلْناه حُطَاماً فَظَلْتُم تفكهون﴾[1]، ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون، ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون، أفرأيتم النار التي تورون، ءأنتم أنشأتم شَجَرتها أم نَحْنُ المنشئون، نحنُ جَعَلناها تذكرةً ومتاعاً للمقوين، فسبِّحِ باسْمِ ربِّكَ العظيم﴾[2].

الله واجب الوجود

إن الله واجب الوجود فوجوده جلَّ وعلا مصدر كل موجود فهو يستحق من صفات الوجود أكمل صفة، بل كل ما يلائم تلك المرتبة العليا فكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبوت وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له على أكمل الوجوه، فيجب أن تكون له صفة الحياة لأن الحياة مما تعتبر كمالاً للوجود بداهة، وعليها يترتب صفات الكمال كالعلم والقدرة، وغير ذلك فوجوب الوجود يستلزم كل صفة كمال أن الوجود في أعلى الكمال، فسائر الصفات كذلك.

واعلم أن وجود الموجودات أمر ضروري بديهي، وكل موجود لا بدّ له من موجد، فكل الموجودات لا بدَّ لها من موجد ضرورياً عقلياً فلا يخلو إما أن يكون عينها أي كل موجودٍ أوجد نفسه وهذا محال لأنه لا يخلو إما أن يكون موجوداً أو معدوماً.

الثاني: محال لأن المعدوم لا يوجد شيئاً؛ والأول محال لأنه حاصل وتحصيل الحاصل محال، ولأن الموجود لا بدّ أن يتقدم ويلزم من هذا تقدمه على نفسه، وإما أن يكون جزء منها وهو كذلك محال أيضاً لأنه إما أن يكون الجزء سابقاً على الكل فيلزم أن يكون الجزء سابقاً على نفسه، وإن كان متأخراً فيلزم أن يكون الجزء سابقاً علي نفسه، وإن كان متأخراً فيلزم أن يكون الشيء سابقاً لنفسه ولما تقدمه، ولزم تأثير المعدوم، وكل ذلك محال فيجب أن يكون غيرها وبما فصلناه أولاً ليس لشيء تأثير فيها غير العالم القدير، وكذلك

---

(١) [الواقعة: ٥٧-٦٥].

(٢) [الواقعة: ٦٨-٧٤].

المحدثات التي تحدث يومياً إما أن يكون مصدرها ذات الإمكان أو ماهيات الممكنات، وكل ذلك باطل لأنه لا شيء لماهيات الممكنات بمقتضيات للوجود فيجب أن يكون مصدرها غيرها وهو واجب الوجود الحي الذي لا إله إلاّ هو؛ فمن هنا بعد ترتيب الإستدلال الصحيح يعلم أن الله واجب الوجود ضرورة وأن واجب الوجود يجب أن يكون له من الصفات ما يلائم تلك المرتبة العظيمة من كل ما يمكن أن يكون له من صفات الكمال، فيجب أن يكون صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والقدرة والإرادة وذلك أن الحياة مما تعتبر كمالاً للوجود قطعاً فإن الحياة مصدر النظام وناموس الحكمة، فواجب الوجود مباين لحياة الممكنات فهو أعظم الموجودات وأكملها، وواجب الوجود والحياة هو: واهب الوجود والحياة وما يتبع ذلك، فلا يتصور فقدان الحياة لمصدر الحياة وذلك بالضرورة.

واعلم أن مرتبة الوجود تتفاوت باعتبارات فوجود الحي في الحقيقة وجودان، وجود ذات حيَّة فوجود الحي أبلغ من وجود الجمادات والجمادات مختلفة في الوجود، فوجود النبات أكثر وجوداً من الجمادات، فوجود الإنسان أعلى درجة من وجود الحيوان ووجود الحيوان أقوى درجة من وجوداً النباتات، ووجود النباتات أقوى درجة من الجمادات الغير الناميات فكل ما وجدت فيه صفات أكثر فيوصف بأنه أكثر وجوداً من غيره باعتبار ما يشمل من تحقيق الوجود، فاتصاف الله بالوجود هو وجود بلغ الغاية في عظمته وآثاره وهو مصدر الحكمة فتبارك الله أحسن الخالقين.

البُرهان على وجودِ الله تعالى

برهاننا على وجود الله سبحانه وتعالى هو هذا الكون وهو آية عظمى تدلنا على وجود الله تعالى وما يحدث في هذا الكون من تعاقب الليل والنهار والشمس والأقمار والنجوم والنباتات، ووجود المحدثات اليومية والتوالد الأنساني والحيواني ونزول الأمطار وتعاقب الظلمة والنور وما يحدث في العالم من التصرفات التي لا يقدر عليها إلاّ الله العزيز الحكيم، وهذا برهان يقيني تصديقي إن الإيمان بوجود الله فطرة في النفس الإنساني وهو أمر ضروري يحصل للإنسان كغيره من نتائج العقل الفطري، وإنما الإستدلال على ذلك رداً على من ألحد وكابر عقله واتبع هواه، فثبت بما ذكرناه أن الله واجب الوجود وأن هذا شيء دل عليه الضرورة والله ولي التوفيق.

والله تعالى قادر

حقيقة القادر هو من يصح منه إيجاد الفعل مع سلامة الأحوال وقلنا مع سلامة الأحوال ليدخل فيه الواحد من المخلوقين إذا منع من التصرف فإنه لا يخرجه عن كونه قادراً، وكذا إمتناع الجمع بين النقيضين فإن امتناعه لا يخرج القادر عن كونه قادراً لأن القدرة لا تتعلق بالمستحيل، هكذا قالوا في حده وفيه أن قوله مع سلامة الأحوال مستدرك لأن قوله هو من يصح منه الفعل شامل سواء فعل أم لا فلا حاجة إلى ذلك القيد وأما الجمع بين النقيضين فلا يرد على الحد حيث أن صحة الفعل قيد في الممكنات وأيضاً أن صفة قادر صفة مشتركة ومرتبة في القوة فلا أحد يوصف بالقدرة إلاّ وهو يوصف بالعجز عن بعض المقدورات إلاّ الله تعالى، وأما المحالات فليست من المقدورات أصلاً فلا توصف بالعجز عنها ولا بالقدرة عليها تأمل.

نعم والله يوصف بأنه قادر على كل شيء في الواقع وفي نفس الأمر ويدل على ذلك العقل والنقل، فإنه بعد أن ثبت أنه الخالق لهذا العالم وما احتوى عليه من عظم الحكمة وحسن التدبير والإتقان وما أشتمل عليه من الصنع العجيب الذي حارت دون تفاصيل عجائبه وبديع غرائبه، العقول الراجحة الزاكية، فإن العقل يقطع بأن ذلك لا يصح إلاّ من قادر حكيم، وإذا علمنا أنه أوجده من العدم بغير آلة ولا ممارسة ولا مباشرة ولا جولان فكرة ولا مزاولة ولا إعتماد فهو يوصف بأنه قادر لذاته لا كمن يوصف بها من خلقه جل وعلا بل هو قادر إلى حد لا يقدر عقل أن يدرك تلك القدرة الإلهية لأن القدرة على الإيجاد من العدم يُرجع العقل حائراً وعاجزاً على أن يصف هذه القدرة العظيمة؛ وأما النقل فقال تعالى: **﴿والله على كل شيء قدير﴾**، وذلك يعم كل مقدور لأن الشيء من أبلغ النكرات العامة لكل شيء، وقال تعالى: **﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾**[1].

والقدرة صفة لله تعالى واجبة له جل وعلا ثبت بها الإيجاد والإعدام ولأنه أبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته فلذلك يجب أن يكون قادراً، ولأن

---

(١) [ق: ٣٨].

خلق العالم إنما يكون بقوة على الفعل فهو قادر لذاته لا يعجزه شيء في السموات والأرض وهو السميع العليم.

نعم إن صدور هذا الكون إنما هو مظهر من مظاهر قدرته وعظمته جل وعلا فقدرته سبحانه صالحة في كل وقت لإيجاد كل ممكن وإعدامه والتأمل اليسير في السموات والأرض وما يجري فيهما من محكم التدبير يهدي إلى معرفة القدرة الباهرة **﴿هو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾**، فإذا رأيت البذرة تشق التربة وتنمو رويداً رويداً لتستوي على سوقها فذلك بتدبير الله وقدرته المحكمة، وإن نبضات قلبك وسريان دمك في عروق بدنك وتجدد الحياة في خلاياك كل ذلك بقدرة الله تعالى، فكما أن القدرة إبتدعته أولاً، وابتدعته ثانياً كل ذلك من عدم، فقد أودعته من أسرارها، وأثبتت فيه من آثارها ما يدل عليها.

إن بعض الجاحدين من علماء الطبيعة حينما بهرهم ما يقع تحت أبصارهم من تجدد الحوادث اليومية والدلائل الباهرة القطعية حارت أفكارهم عند ذلك ولكنهم غالبوا عقولهم وجحدوا اليقين مما قضت به أفهامهم فردوا ذلك إلى مجهول محض هي قوى كامنة في المواد والعناصر المختلفة وذلك تزوير وتحريف شائن وتسفيه للعقل السليم النافع ومغالطة للمشاهد الواقع، أما الحوادث اليومية وما يجري من خلال الليل والنهار وما يحدث فيهما من العجائب المتجدد في كل لحظة وأوان ويستمر في كل وقت وزمان لدليل على تقدير العزيز العليم وأن الله قادر على كل شيء قوي متين وأنه لا يئوده خلق ولا أمر **﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم﴾**، **﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾**[1].

إن قدرة الله في مجالها الواسع لا يعييها شيء البتة وآثارها التي تشاهدها يدل على طاقة لا تقف عند حدودها، فإن العالم وما يحتويه من كائنات حية وغير حية إنما هو أثر من آثار قدرة الله فإنه إبتدعها من العدم بعد أن لم يكن

---

(١) [يس: ٣٦-٣٧].

فهي قدرة شاملة في نواحي هذا الكون، والقرآن يخبرنا بأنه لا يعجزه شيء حين يقول جلّ وعلا ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو علي كل شيء قدير**﴾، ويقول جلّ وعلا ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير**﴾[1]، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تصرح أن قدرة الله لا تقف عند حد أصلاً ولا تتناهى بَعَدٍّ، وأنها تدل على طاقة عظيمة وأن خلفها أمور جسيمة وكثيرة لا تقدرها عقول ذوي الألباب ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون**﴾[2].

واعلم إنّا إذا نظرنا بعض الكائنات في هذا الكون العظيم وتدبرنا بعض المسخرات في الفلك، كالشمس مثلاً الذي قدره الله لصلاح العالم، وكل ما في الفلك يستمد من نور الشمس التي هي كوكب من جملة كواكب الفلك، وغيرها من النجوم التي لا يُحصى عددها إلاّ الله، وهي في أحسن نظام وأعظم إحكام لا تتغير ولا تتحول عن مطالعها التي قدِّرت لها وهي تسير على تقدير، وعلى نظام لا تختل على ممر الدهور، وفي سير الفلك بما فيه تقدير الليل والنهار، وإذا تأملنا ما في ذلك من المصالح، لا تخفى للعالم كله، ولا يستقيم ولا يقوم إلاّ بنور الشمس، وغيرها من النجوم يرجع العقل حائراً والبصر خاسئاً وهو حسير عن أن يتخيل مدى ومبلغ قدرة الله العظيمة التي يشير إليها قول الله تعالى: ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾[3]، وإذا نظرنا إلى قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس ضُربَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له**﴾[4]، كيف يصور قدرة البشر العاجز عن خلق ذرة أو ذباب وأنه يرمز إلى صفة الخالق رمزاً يستشعر المُطِّلع والمتأمل خلال آياته ما يبهر العقل، ويصدق بقدرة الذات الإلهية، التي لا يحيط بها فكر ولا يذكرها عقل ولا يبلغ منتهاها أي تصور فثبت أن الله قادر لذاته، وأن القدرة صفةٌ ذاتية له تعالى؛ والله ولي التوفيق.

---

(١) [الحج: ٦].
(٢) [المؤمنون: ٨٨].
(٣) [النور: ٣٥].
(٤) [الحج: ٧٣].

والله سُبْحَانَه وَتَعالى عَالم

إن الله بكل شيء عليم، فالعلم من صفات الله الذاتية وهو عالم بكل شيء علم كشف وإحاطة يعلم الذات وحقيقتها وتركيبها لأنه الخالق لها، فعلمه علم لم يسبق جهل عَلِمَ بها قبل كونها وبعد كونها وهو عالم بما لم يكن كيف يكون لو كان، وعالم بما سيكون كيف يكون علم أزلي ذاتي لا يسبقه جهل ولا يدخله نسيان، ولا يخالفه الواقع يعمل الظاهر والباطن، وبالدنيا وما فيها، وبالآخرة وما يقع فيها محيط بالكائنات ماضيها وحاليها، ومستقبلها وما تنتهي الأشياء إليه، وما قد وقع لا يغيب عنه شيء لا يعزب عنه شيء لا في الأرض ،ولا في السماء يعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وقطراتها، إنه لعلم يشرق على كل شيء فيجلّي بواطنه وخوافيه ويكشف عما يحجبه الأستار وتخفيه، فالشاهد، والغائب لديه على سواء، فالقريب، والداني، والبعيد، والقاصي، والكبير والصغير، والنقير، والقطمير بمنزلة واحدة بمعنى أنه يوصف كل الأشياء بالقرب إليه والدنو، والبعد عنه والقصو، فعلمه بذلك على سواء وما هو صغير أو كبير بالنسبة إلى العلم سواء، وليس كعلمنا فإن الإنسان قد يعرف شيئاً حاضراً لديه ويذكر طرفاً من غائبه، ومن ماضيه، وما وراء فهو بالنسبة إليه أعمى وجاهل مع أنه قد لا يذكر من ماضيه إلاّ قليلاً وما طال وقته نقص من فكره وعلمه، ويجهل ما بعد عن العيان ولا يعلم مما حضر إلاّ طرفاً يسيراً من أحواله، لكن الله سبحانه وتعالى يحصي أعمالنا ما مضى منها وحضر ويعلم كل حادثة وكائنة فيما عبر منها وما حضر، وما إستتر منها وما ظهر، قال تعالى حكاية عن فرعون وما أجاب به موسى: **﴿قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾**[1]، **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس، إلاّ في كتاب مبين﴾**[2]، فانظر وتأمل هذه الآية فإنها ترمز إلى علم عظيم لا تقدره العقول، ولا تحيط بحقيقته تفكير ذوي الفهم والإدراك، فهو يعلم جل وعلا ما في الأرض من رمال ونفوس وأعمال، وما في البحر من

---

(١) [طه: ٥٢].

(٢) [الأنعام: ٥٩].

حيوان وكنوز، وما فيها من قطرات، وما في الأشجار من ورق وثمار، وما في السنابل من حبات، وما في الروس من شعرات، وما في القلوب من ضمائر ونيات يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم ما تكنه الضمائر، وما تخفيه السرائر، وما يجري في هذا الكون من التصرفات، وما تعتريه من التغيرات والتحولات، **﴿وأسرو قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور،ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير،﴾**[1]، **﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾**[2]، ويعلم جل وعلا ما تستره الأرحام، وما في بطون الأنعام، والحيوانات وأنواعها والوحوش في القفار على إختلاف أجناسها، **﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيِّ أرضٍ تموت إن الله عليم خبير﴾**[4]، إن صنع العالم بجميع ما اشتمل عليه من بدائع الأحكام الذي تتفاضل العقول في فهم بعض أسراره، وتحير دون الوقوف على دقائق حكمه إن ذلك يدل على أن مصدره عالم بكل شيء الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأنه المبدع لذلك كله وأنه لا يعزب عنه وعن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم **﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما﴾**[5].

وإن من أدلة ثبوت العلم لله تعالى هو: أن علْمَ واجب الوجود من لوازم وجوده لأنه لا يتصور أعلى منه فيكون محيطاً بكَل ما يمكن علمه، فالعلم الكامل الذي ليس فوقه علم هو لواجب الوجود ومن لوازم وجوده العلم بكمال وجوده، ويعلو العلم بعلو وجوده وهو علم أزلي ذاتي غني عن الآلات وجولان الفكر والنظر فيخالف علم الممكنات.

---

(١) [الملك: ١٣-١٤].
(٢) [الأنعام: ٣].
(٣) [سبأ: ٢].
(٤) [لقمان: ٣٤].
(٥) [الطلاق: ١٢].

دليل آخر: ما نشاهده في نظام هذا الكون من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه، واقتران كل شيء بما يحتاج إليه من وجوده وبقائه، وذلك ظاهر في المشاهدات بالعيان من صغير وكبير وحيوان وغيره وأنه قد أعد كل شيء في موضعه وبما يحتاج إليه من لوازمه على نظام محكم متقن فذلك دليل على علم صانعه وحكمة مدبره.

نعم إن هذا الكون وما فيه من الإتقان لبرهان حق وشاهد صدق على علم الله وحكمته مع هذا فإن الله خالق كل شيء والذي خلق المخلوقات كلها فبالأحرى أن يعلم أسرارها وخفاياها ويعلم ما في بواطنها وظواهرها، وما تركبت منه ومقاديرها وما تحتاج إليه ﴿**ألا يعلم من خلق هو اللطيف الخبير**﴾[1].

دليل آخر: أنه قد صح منه جل وعلا الفعل المحكم ولا يصح الفعل المحكم إلاّ من قادر عظيم عالم حكيم، ودليلنا أنه قد صح منه الفعل المحكم هو أنا وجدنا السموات والأرض وما بينهما على أبدع نظام وأحسن ترتيب وأحكم تدبير وتقدير لا يبلغ عقل أن يتصور بعض أجزاء تلك الحكمة ولا يدرك أقصى ذلك التدبير العظيم الذي لو فكر العاقل في أضعف شيء من المخلوقات وما اشتمل عليه من التدبير المحكم لرجع العقلَ حائراً والفكر وآلهاً ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير**﴾ وانظر إلى كلام عالم الكلام أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن طالب كرّم الله وجهه في وصف العلم والقدرة وقال [لم يؤوده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرى، ولا وقف به عجزٌ عما خلق، ولا ولجت عليه شبهه فيما قضى وقدر؛ بل قضاءٌ متقن وعلم محكم وأمر مبرم، المآمول مع النقم، والمرهوب مع النعم] أهـ.

فالله تعالى قادر لذاته عالم لذاته لا يغفل ولا ينسى، ولا يعجز ولا يعيى، لأنه ليس بجسم ولا عالم بعلم، ولا قادر بقدرة؛ بل علمه لا يقف معلومه عند حد، وقادر لا يقف مقدوره عند حد وغاية؛ بل عالم بكل شيء وقادر على كل شيء لأنه تعالى على ذات مخصوصة يجب أن تعلم كل معلوم وتقدر على كل

---

(١) [الملك: ١٤].

مقدور فيكون كل ممكن داخل تحت هذه القضية الكلية والذات التي تكون هكذا لا يقف معلومها عند حد وغاية ويستحيل عليه النسيان والجهل لأنها ذات كما ذكرنا ليست ذات أعضاء وحواس فهو لا يقاس بالناس ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ فثبت أن الله عالم لذاته موصوف بذلك في كل وقت وأوان والله المستعان.

«وهو تعالى قديم»

من صفات الله تعالى أنه قديم أزلي لأنه تعالى واجب الوجود ومن الضرورة أن واجب الوجود يكون قديماً لا أول لوجوده ليس وجوده مسبوقاً بعدم ولأنه لو لم يكن قديماً لكان محدثاً والمحدث ما سبق وجوده عدم وكل ما سبق له عدم فلا بدّ من سبب لوجوده فيكون محدثاً لذلك السبب ويلزم أن يكون محتاجاً لغيره وقد سبق أن الله موجودٌ لذاته فهو واجب الوجود وواجب الوجود لا يطرأ عليه العدم، وإلاّ لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه وهو محال، هو الآول والآخر.

ومعنى **الأول** أنه لا أول لوجوده.

ومعنى **الآخر** أنه لا أخر لأخرويته، فلا يتغير ولا يزول، فهو أزلي أبدي جل وعلا ﴿**هو الأول والآخر والظاهـر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم**﴾[1].

﴿**ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلاّ هو كل شيء هالك إلاّ وجهه**﴾[2]، ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾[3]، هو قبل القبل فلا قبل له، قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه [إن قلت متى فقد سبق الزمان كونه، وإن قلت قبل فالقبل بعـده، وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه] أهـ.

وأخرج البخاري عن عمران بن الحصين قال إني عند رسول الله ﷺ وسلم إذ جاءه قوم من بني تميم (فقال إقبلوا البشرى يا بني تميم) قالوا بشرتنا فأعطنا، فدخل أناس من أهل اليمن فقـال: (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لـم يقبل

---

(١) [الحديد: ٣].

(٢) [القصص: ٨٨].

(٣) [الرحمن: ٢٧].

البشرى بنو تميم) قالوا قبلنا جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) أهـ.

﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً بصيرا﴾[1]، هو الحي الـذي لايجوز عليه الفناء، الأول بلا إبتداء، والآخر بلا إنتهاء، المتصف بـدوام الوجود، والقادر على العالم المختص بصفات الكمال، الذي لا يشاركه فيها مشارك ولا يملكها معه مالك.

واعلم أن تركيب هـذا الكون العظيم وما فيه من الإختلاف والتركيبات المتبوعات، وتغير الزمان والأوقات، وطلوع الكواكب وأفولها، وإشراقها، وكسوفها، والإحياء، والإماته، ونزول الأمراض، والأمطار، واختلاف الليل والنهار، وتقلب الحالات؛ إن ذلك كلَّه يدل على أن واجب الوجود لا يزول ولا يزال ولا تعتريه الأحوال وأنه قديم أزلي وأبدي ومن يقوم بنظام العالم لولاه **﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهمـا من أحد من بعده﴾**[2]، ومن يرزق ويبسط، ويقبض، ويحيي، ويميت، ومن ينفخ الروح فـي الجنين فـي بطن أمه وهو في ظلمات ثلاث ثم يخرجه ويدبر أمره؛ **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**[3]، **﴿أَلَمْ يرَو إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مـا يمسكهن إلاّ الرحمن إنه بكل شيء بصير، أمَّن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلاّ في غرور أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجُّوا في عتوٍ ونفور﴾**[4].

فثبت بما ذكرنا أن الله سبحانه قديم حـي قيوم وهو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد فناء كل شيء **﴿بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾**.

---

(١) [الفرقان: ٥٩].
(٢) [فاطر: ٤١].
(٣) [النحل: ٧٨-٧٩].
(٤) [الملك: ١٩-٢١].

والله سبحانه وتعالى غَنيٌّ

هو الغني لا إله إلاّ هو فلا يجوز عليه الحاجة في حال من الأحوال بضرورة العقل ودلالة النقل.

أما العقل فلأن الحاجة من ضروريات الأجسام وقد صح أنه جل وعلا ليس بجسم ولا عرض لاحتياج الأجسام إلى التحيز وذلك في شأنه محال لأنه لا يشبه الأشياء ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ فالله سبحانه يوصف بأنه غني وليست هذه الصفة بأنه يملك هذا العالم بما فيه بل إنه غناء ذاتي لا يحتاج إلى شيء ولا تجوز عليه الحاجة ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير**﴾[1]، ﴿**له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه ترجعون**﴾[2]، فهو جل وعلا مستغن بذاته عما سواه مستعلياً بأنوار جلالته متفرد بملكوتيته وسعة عظمته.

واعلم أن ملكوت الله تعالى وقدسيته التي يُعرف أقلها ويجهل أكثرها إنما هي مظهر للغناء الإلهي العظيم الذي لا يقدر قدره ولا يوصل إلى كنه جلالته ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾[3].

إن الله سبحانه وتعالى قادر على فناء العالم كله ولا ينقص من غناه شيء، وقادر على إيجاد عوالم كثيرة إلى ما لا يتناها ولا يزيد في ملكه شيء حيث أنه الغني المطلق لذاته؛ وقد جاء في الحديث القدسي (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد في ملكي شيء، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم. كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص من ملكي شيء) الحديث.

نعم إن هذه المسألة وهي أن الله غني لا خلاف فيها بين المسلمين وكل من أقر بالله لأنه القادر على كل شيء غير محتاج إلى شيء، لأن حقيقة الحاجة هي: الدواعي الداعية إلى جلب نفع ودفع ضر وذلك يستلزم الألم واللذة وهذه من صفات الأجسام التي احتاجت إلى موجدها أولاً والله قادر لذاته لا يحتاج

---

(١) [الملك: ١].
(٢) [يس: ٨٣].
(٣) [يس: ٨٣].

إلى شيء فالأشياء بقدرته تشيئت والأجسام بقدرته تجسمت وكل شيء لعظمته دل وخضع وامتثل واتضح ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**﴾[1].

﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾[2]، فثبت أنه الغني لذاته تنزه عن العجز والحاجة ﴿**بيده الملك وهو على كل شيء قدير**﴾.

والله تعالى سَمِيعٌ بَصِيرٌ

الله تعالى يوصف بأنه سميع بصير بمعنى أنه عالم فهو عالم بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء لا يشغله عن ذلك شاغل ولا يحول دونه حائل يسمع لا بجارحه ويبصر لا بحدقة وآلة **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**، فسمعه علمه وبصره اكتشافه وإحاطته بكل موجود ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ أي يعلم سرهم ونجواهم ومع ذلك فالحفظة لديهم يكتبون فهذا معنى الآية؛ لأن **بلى** تفيد الرد عليهم في حسبانهم إن الله لا يسمع نجواهم وسرهم وهذا دليل على أن السمع بمعنى العلم لأن السر لا يُسمع، وقال تعالى ﴿**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد**﴾ فسميع بصير من صفاته الذاتية.

واعلم أن الله قد وصف نفسه جلّ وعلا فيجب علينا أن نعرف حقيقة تلك الصفة وقد دل الدليل على أن السمع والبصر في حقه جل وعلا بمعنى العلم وذلك قوله تعالى﴿**يسمع سرهم ونجواهم**﴾ ولا سماع للسر لأنه ليس بصوت فثبت أنه بمعنى العلم والدليل على أنه سميع بصير العقل والنقل أما العقل: فلأن من ضروريات الإله القادر الذي خلق هذا العالم بما فيه أن يعلم الأصوات المشاهدات أي يعلمه علما كشفياً حقيقياً لأنه الخالق لها والمدبر لها ولأنه لو خفي عليه شيء لتطرق إليه العجز والجهل.

وأما النقل فقد ثبت بالأيات المتكاثرة أنه محيط بكل شيء وعالم بكل شيء

---

(١) [فصلت: ١١].

(٢) [يس: ٨٢].

لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء**﴾ ويدلنا على هذا وعلى أن الإله لا بد أن يعلم جميع المعلومات قول الله تعالى رداً على من يعبد الأصنام ويدعوها ﴿**يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا**﴾ ومعنى هذا أن المعبود يجب أن يكون سميعاً بصيراً لأن ضد ذلك الجهل الخفي والجاهل عاجز والعاجز غير قادر لأنه إذا كان يخفى عليه شيء فيقع في ملكه النقص والتغيير فيبطل نظام العالم وهذا شيء معلوم عقلاً وأيضاً فالآيات المتكاثرة كقوله تعالى ﴿**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير**﴾ ويدل على ما قلناه من أن السمع والبصر في حق الله بمعنى العلم قول أمير المؤمنين كرّم الله وجهه [يخبر لا بلسان وأصوات، ويسمع لا بخروق وأدوات، ويقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفظ، ويريد ولا يضمر، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقة، يقول لما يريد كن فيكون لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع وإنما كلامه تعالى فعل منه إنشاؤه، ولم يكن قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً كان إلهاً ثانياً]. إلى آخر كلامه وهذا من جوامع الكلم صلوات الله عليه، وقال الهادي إلى الحق عليه السلام «معنى سميع هو: عليم والحجة قول الله تعالى ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم**﴾ والسر ما إنطوت عليه الضمائر وبصير بالعباد فهو يريد عالم محيط بكل أمورهم مطلع على خفي سرائرهم» أهـ. وقال أمير المؤمنين (ع) أيضاً [سمعه الإتقان لبريته وعينه المشاهدة لخلقة ومشاهدته الإمتناع منه] أهـ.

وقال أيضاً [ليس إدراكه بالأبصار ولا علمه بالأخبار فكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كثيرها وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام].

تنبيه:

اعلم أن المسموعات والمبصرات لما كانت بالنسبة إلى المخلوقين لا تدرك إلاّ بحاسة السمع والبصر وهو إطلاع وكشف يؤدي في حق المخلوقين إلى العلم بالأصوات والمشاهدات حسن من الله سبحانه أن يوصف بأنه سميع بصير.

ليعرف المستدل على الله تعالى أنه لا يخفى عليه شيء مما يسمع أو يشاهد، وأنه يعلمها علماً حقيقياً ولأن نتيجة السمع والبصر هو العلم بالمسموع والمشاهد، وطريق ذلك الحواس في حق المخلوقين. وأما في حق الله فلا تجوز عليه الحواس فنتائج ذلك في حقه جل وعلا هو العلم الحقيقي وحاصله أن الله لا يخفى عليه شيء مما يسمع أو يبصر فهو لديه معلوم مكشوف فلا يخرج عن معلومة صوت صغر أو كبر أو تناهى في الدقة والخفاء إلى ما تضمره القلوب وتكنه الضمائر في الصدور فلا يخرج عن إحاطة علمه شيء جل أو دق أو تناهى في الصغر إلى ما لا يدرك بمشاهدة الأبصار لصغره وخفاه وما يدرك بالمكبرات وما لا يدرك بها فكل موجود فمحاط بقدرته وعلمه لا يخرج عن ذلك شيء **﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾**[1]، **﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾**[2]، هذه الآيات تبين للبيب والحاذق الأديب أن علم الله وأتصافه بالسمع والبصر كل ذلك بمعنى العلم، والله ولي التوفيق.

إرادة الله تعالى ومشيئته

إن الله سبحانه وتعالى يوصف بالإرادة، والمشية، والمحبة، والرضا، والكراهة، والسخط، والمقت، والغضب، وقد صرح بذلك القرآن العظيم ومعرفة المراد من ذلك واجبة حتى لا يعتقد المكلف ما لا يجوز على الله تعالى، فإن إرادة الله تعالى حتم وخلق وأحداث وخبر وحكم وأمر ووعد ووعيد ولا تسبق إرادته مراده إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فهذه إرادة خلق وإحداث وحتم **﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم﴾** وهذه إرادة خبر وحكم ووعد، **﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾** وهذه إرادة خبر ووعد قال تعالى **﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب**

---

(١) [يونس: ٦١].
(٢) [الرعد: ٨-١٠].

عظيم﴾ وهذه إرادة حكم وقضاء نافذ ووعيد، ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وهذه إرادة خبر وحكم وحتم ووعد أيضاً «يريد الله أن يتوب عليكم» وهذه إرادة خبر وحكم ووعد.

نعم فإرادة الله في أفعاله هو الخلق والإحداث مع تقدم علمه بالمصلحة في إحداثه ولا يخلق شيئاً إلاّ لعلمه بإشتمال ذلك على مصلحة فما علم الله أن إيجاده مصلحة أوجده تعالى؛ والإيجاد هي الإرادة والمصلحة قد تتعلق بالأزمان والأوقات فعند أن تكون المصلحة في إيجاد شيء أوجده من نزول أمطار وصلاح أثمار وزروع وجدب وخصب وإرسال الرياح وخلق ذكر وأنثى ونزول أمراض وإسقام وعافية وصحة وغنا وفقر إلى غير ذلك ولا يعجزه شيء ولا يشغله شأن عن شأن ﴿بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾.

واعلم أنه قد كثر الكلام والإختلاف في الإرادة حتى توقف بعض عن الخوض فيها والأمر واضح ولا نحتاج إلى تعمق فكر وتنقيب عن ماهية الإرادة فإن الله سبحانه وتعالى إختص بصفة الإلهية التي عجز عن معرفة كنهها كل الخلق من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وكل المكلفين من المفكرين والعقلاء المحنكين بل هو متصف بالإلهية التي اشتملت على كل أجزاء الكمال كمال يليق بذاته الكريمة على الإطلاق وهو منزه عن كل نقص ومباين للمحدثات في صفاتها كلها، فما هو المانع من أن نصف الله سبحانه بأنه مريد وقد وصف نفسه جل وعلا في القرآن وما علينا إلاّ أن نعلم أنه لا يصدر من الله فعل إلاّ على بالغ من الحكمة والمصلحة ولا يخلق ما لا فائدة تحته أما آجلاً أو عاجلاً فصفة الإرادة كغيرها من صفات الله تعالى التي ليست على ظاهرها كسميع بصير ونحو ذلك أما جولان الخاطر وتدبير الأشياء والتفكير والإضمار فذلك من صفات الأجسام فوصف الله الإرادة على أنها الخلق والإحداث أو علمه باشتمالها على مصلحة أو بمعنى عالم لا يمنع من ذلك، أما التفصيلات والتعمقات لتحقيق ماهية الصفة فلا يجوز لأن الله مباين لخلقه فلا يمكن أن نثبت له صفة تقتضي تشبيهاً مما لا يجوز على الله، ومن جهة أخرى لا يمكن أن يفعل اللهَ فعلا لا بإرادة أي بلا تقدم علم أو يفعله لا لوجه من الحكمة والمصلحة تعالى الله عن ذلك ﴿أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا

ترجعون﴾ ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ويجب علينا أن ننزه الله تعالى من كل نقص وشين وما يقتضيه ذلك من مشابهة لخلقه، وقال بعضهم إرادة الله في خلق أفعاله وجودها مشتملة على مصلحة وحكمة وفي إرادته لفعلنا الأمر بها لما يعلمه من المصلحة لنا في الدنيا والآخرة، والمشيئة لها معان في حقه جل وعلا تكون بمعنى العلم ومن ذلك ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾، وبمعنى الحتم والقضاء كقوله تعالى ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ وبمعنى الفعل نحو ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون﴾ وقد تكون بمعنى العلم أي لو علمنا المصلحة في ذلك لأوجدناه وهذا قريب من معنى الإرادة وبعضهم يفرق بين الإرادة والمشيئة وكما تقول المجبرة حيث حكموا بأن الله يشاء المعاصي ولا يريدها فراراً من قول الله ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ ونحوها وهذا من التهافت العجيب والخذلان الذي ليس معه أي رشد لأن من رضي شيئاً فقد شاءه ومن شاءه فقد رضيه وسيأتي لهذا مزيد من التفصيل بعون الله تعالى.

هذا وأما الكراهة فكراهته للمعاصي هي النهي عنها مع ما يعلمه مما ليس في صالحنا، والرضا والمحبة الحكم بالرحمة والثواب على صالح أعمالنا والسخط والمقت والغضب الحكم بالنقمة والعقاب على عصياننا إلى آخره.

وهذا واضح عند ذوي الألباب ومفهوم عند من فهم السنة والكتاب قال أمير المؤمنين كرَّم الله وجهه في وصفه، تعالى[فاعل لا بإضطراب آلة، مقدر لا بجولان فكرة، غني لا بإستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا تردفه الأدوات]، قال عليه السلام: [يقول ولا يلفظ، ويحفظ ولا يتحفظ، ويريد ولا يضمر، ويحب ويرضا من غير رقة، ويغضب من غير مشقة] وقال عليه السلام، [مشيته الإنفاذ لحكمه، وإرادته إمضاء الأمور].

وقال بعض العلماء في تفسير الإرادة «مما يجب لواجب الوجود الإرادة وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت بالضرورة، إن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل وفق علمه وحسب علمه ثم أن كل موجود هو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصه كان على وفق

العلم بالضرورة أنه مريد ولا معنى للإرادة إلا هذا أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن يرجع عنه فذلك محال على واجب الوجود فإن هذا المعنى من العموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم فتغير عل حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل أو الترك وهذا من شأن المخلوقين وهذا التفسير للإرادة يشير إلى أنها بمعنى العلم.

واعلم أن ما نرى من عجائب المخلوقات مما في الأرض والسموات من التنوع في الموجودات والتميز في الصفات واختلاف في الذوات وتشكيل في الهيئات ذلك من مظهر الإرادة، إذ توزيع الصفات وتنوع الذوات في أنحاء الكون العريض ليس إلا لمشيته العليا عز وعلا ولو أراد وشاء أن يخلق العالم الذي نعيش فيه على نحو آخر في قوانينه لفعل.

قال بعضهم وقديماً يستدل الأئمة على عظم إرادة الله تعالى في هذا المعنى بالنحل يأكل من ورق الشجر فيحوله شهداً ويأكل منه الدود فيحوله حريراً ويأكل منه أطيار أخرى فتحول قذراً ولا تتخلف إرادة الله تعالى **﴿إن ربك فعال لما يريد﴾** فإرادة الله نافذة في السماء والأرض لا رادّ له ولا معقب لحكمه **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم﴾**[1].

هذا وإن شمول الإرادة وعموم القدرة لله سبحانه وتعالى لصفة يعجز اللسان عن التعبير بما تقضيه هذه الألفاظ من الكمال ومظاهر الإرادة والقدرة فيما نشاهده من المخلوقات وأنواع المختلفات وتدبير الأكوان في الأرض والسموات فسبحان الذي عجزت الأفهام عن تفسير كنه ذاته وخرست الألسن عن الكلام في تفسير بالغ صفاته وتحيرت الألباب دون الوقوف على حقيق كماله ومعرفة كبريائه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) [القصص: ٢٨].

الله لا يُشْبِهُ الأشياء

إذا قلنا أن الله جل وعلا لا يشبه الأشياء أو لا يشبهه شيء فهي كلمة جامعة لأصول التوحيد ولأسمائه الحسنى فالله في ذاته وكامل صفاته لا يشبه شيئاً ولا يشاركه أحد في حد صفاته فهو أحد صمد كما قال تعالى **﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾**[1]، **﴿ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل﴾** **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**.

واعلم أن من الواجب على كل مكلف أن يوحد الله تعالى في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأن يؤمن به من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف لأن من ليس كمثله شيء يعم عدم المثيل في كل حالاته في ذاته وصفاته وأفعاله وإلا لزم حصول المثل وقد نفاه نفياً عاماً فأسماؤه وصفاته حقائق دينية فلا يقاس بالناس ولا يدرك بالحواس وكذا أفعاله فلا تستند أفعاله إلى غيره كما يعتقده المنجمون والطبائعيون والماديون جرياً على أصولهم الكفرية وتشعب أقوالهم الخرافية وغيرهم من الملاحدة والباطنية أخرج أحمد والنسائي والبزار والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال خط رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيماً) ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وشماله وقال: (هذا ليس منها واحد إلا عليه شيطان يدعوا إليه ثم قرأ **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**).

واعلم أن ذات الله مخالفة للذوات جميعاً مخالفة ظاهرة حقيقية والعقل يقضي بذلك ضرورة لأن مرتبة المخلوق غير مرتبة الخالق فكل مخلوق غير الخالق والغيرية المطلقة تقتضي المخالفة في جميع الصفات فالخالق لا يشبه شيء من مخلوقاته لا في الذات ولا في الصفة فلذا قال بعض العلماء ومما لا شك فيه أنا نحتاج في محاولتنا لوصف الخالق ومعرفة الصفة إلى ألفاظ ومعان تختلف عن وصف المخلوقات في العالم فوصف الخالق غير وصف المخلوق، وإن نظرية الإسلام إلى أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بجميع صفات الكمال تدعو إلى أن نُجلّه ونقدسه عن التجسيد وننزهه عن صفات المخلوقين ويطابق

---

(١) [الاخلاص].

هذه القضية العقلية أدلة الكتاب والسنة فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما**﴾.

«الله تعالى لا يُرَى بالأبصار»

إن الله سبحانه وتعالى لا تجوز عليه الرؤية لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنه لا يرى بالأبصار إلا ما كان جسماً أو عرضاً ضرورة ولنا على ذلك دليل العقل والنقل.

أما **العقل** فإنا نجده يحكم بالضرورة أنه لا يرى بالأبصار إلا ما كان جسماً أو عرضاً ولا مجال للعقل في غير ذلك فهو يحكم بذلك حكماً قاطعاً أنه لا يمكن أن يرى إلا ذلك، وقد حكم العقل أيضاً أن الله ليس بجسم ولا عرض لأنه لو قدر ذلك لكان الله من جنس ما يرى وحكم عليه بحكم ما يرى من الحدوث وغير ذلك وقد قضا العقل والنقل أن الله لا يشبه الأشياء، ومن جملة صفات المخلوقين أن الأبصار تدركهم وأنه لا يرى شيء إلا في جهة وهذه قضية مبتوتة ولأنه لو قدر أنه يرى في الدنيا أو في الآخرة لانتقض كل ما اختص به من صفات الكمال فثبت أن الله لا يرى أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وأما **النقل** فقوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾ إن هذه الآية قاضية وحاكمة بأن الله لا تدركه الأبصار بصيغة النفي المؤبد لأنه ليس من شأنه ذلك والآية خارج مخرج التمدح فلو قدر أنه يرى في الآخرة لبطل معنى الآية وفي الآية تنبيه وإشارة ظاهرة تؤكد نفي الرؤية وتأبيدها، بقوله تعالى: ﴿**إنه اللطيف الخبير**﴾ أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير العالم المطلع على كل شيء ولو قدر أن يرى في أي وقت من الأوقات لبطل كونه لطيفاً خبيراً حيث أن ذلك خارج مخرج العلة فقد تقدس جلّ وعلا أن يحول أو يزول عما هو عليه من صفات الكمال.

أما من يقول بأنه يرى في الآخرة مستدلاً بقوله تعالى ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ فنقول إنه لم يفهم معاني القرآن ولم يتأمل لما يشير إليه في

صريح ألفاظه ويرمز إلى خفايا أسراره بأنه يقول ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ وهو اللطيف الخبير ألا يعلم هذا القائل أنه قد أبطل معاني هذه الآية لأنه إذا قدر أنه يرى فقد جوز عليه صفة من صفة المخلوقين لأن من صفة المخلوقين أنهم يدركون بالحواس وقد شارك المخلوقين وبطل ليس كمثله شيء ورد قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ ويلزم التجسيم حيث أنه لا يرى إلا في الجهة وذلك يقتضي التحيز، ولو تدبر معنى الآية وهي قوله تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ لفهم أنها تنص على عدم الرؤية نصا جليا. أما **أولا** فإن الله أوردها في سياق تعظيم صفات جلاله فيستحيل أن يكون صفة منقوضة بوقت من الأوقات ولزم التخصيص لعمومها وانتقض الغرض بالوصف بها ويقتضي المشابهة لغيره كما قيل أن الملائكة ترى في الآخرة وكذلك الجن **ثانيا** أن صريح قوله تعالى ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ يدل على نفي التشبيه في كل حال وفي كل وقت فلو فرض عليه رؤية لانتقض النفي وشابه المرئيات في حصول تجلي المرئي، **ثالثاً** قال تعالى: ﴿**فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾.

نسأل الذين يحكمون على الله بالرؤية يوم القيامة فنقول لما أخذتهم الصاعقة رداً عليهم في سؤال الرؤية هل ذلك عقاب على ممكن؟ وما سألوا إلا ما هو يجوز على الله؟ أم ذلك على أنهم سألوا غير ممكن وأنهم سألوا ما لا يجوز على الله؟ فلا يمكن الجواب على هذا إلا أنهم سألوا ما لا يجوز على الله وأنهم عاصون بهذا السؤال؛ وقد قال تعالى: ﴿**بظلمهم**﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم وتعدوا بهذا السؤال ولو كان الله يُرى يوم القيامة كان الجواب عليهم سيقع ما تطلبون في الآخرة ولا يستحقون الصاعقة؛ تأمل.

هذا ونعود إلى تحقيق الآية التي يستدلون بها وهي ﴿**وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ فناضرة الأولى من النضارة وهي الحسَن والجمال إلى ربها ناظرة منتظرة الرحمة من الله تعالى راجية لذلك رجاء لا يخيب راجيه والدليل على ذلك نظارة الوجوه لما يشاهدون من مقدمات الرحمة والنجاة من النار واستعمال ناظرة بمعنى منتظرة كثير في كلام العرب بل يكاد يقرب من الحقيقة لكثرة الإستعمال كما يقال في عطف النظر وعطف نظره عليه ونحوه ورد في

القرآن في عدة آيات قال تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون﴾[1]، ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ وغير ذلك كقوله تعالى: ﴿فناظرة بما يرجع المرسلون﴾، قال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأت بالخلاص

ولفظ الوجوه دليل أن المراد الانتظار لأن الوجه لا ينظر تأمل.

ومما يدل على أن ناظرة في الآية بمعنى منتظرة المقابلة بالآيات التي بعدها وهي (وجوه يومئذ باسرة) حازنة كئيبة (تظن أن يفعل بها فاقرة) تظن أي تعلم بنزول العذاب، والفاقرة الداهية فمقابلة ناضرة بالعذاب دليل على أن ناضرة منتظرة أي تنتظر الرحمة كما أن أهل النار ينتظرون العذاب والنظر بمعنى الرؤية ليست رحمة وإن زخرف المجسمة بأن الرؤية فيها لذة فلا تصلح بمقابلة العذاب تأمل.

ومعنى أن هذه الآية من المتشابه الذي لا يجوز الأخذ بظاهره حيث أن هذه الآية معارضة للآيات الأولى المحكمة الدالة بنفي الرؤية صريحا ومطابقة للقضية العقلية؛ ومن القواعد الأصولية رد المتشابه إلى المحكم والمحكم ما اتضح معناه مع مطابقته لحكم العقل، والمحكم أم الكتاب، أي المرجع والأصل الذي يرد المتشابه إليه وهذه قاعدة أصولية قطعية، ومن الدليل النقلي قول أمير المؤمنين عليه السلام [لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس] وقال كرم الله وجهه [ما وحد الله من كيفه، ولا إيّاهُ عَنا من شبهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم بسواه معلول، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] وروي أن مسروقاً أتى عائشة فقال لها هل رأى محمدا ربه فقالت «يا هذا لقد قف شعري مما قلت» ثم قالت: «ثلاث من حدث بهن فقد كذب: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله عز وجل ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ ومن حدثك أن محمد كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾» الآية.

---

(١) [يس: ٤٩].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: [لا تحويه الأماكن لعظمته، ولا تدركه الأبصار لجلالته فامتنع من الأوهام أن تستغرقه وعن الأذهان أن تمثله] وقوله تعالى ﴿لن تراني﴾ جواباً على موسى (ع) مؤكدا للنفي بلن المقتضية للتأبيد فثبت سبحانه أنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا تجوز عليه الرؤية في حال من الأحوال انتهاء الكلام في الصفات تفصيلا ونتبعه كلاما في الصفات بإجمال.

فصل

اعلم أنه لا يصل عقل وإن بلغ في الفهم وقوة إلادراك ما بلغ فلن يصل إلى غاية ما يتناهى كمال جلاله وإنما غاية ما يمكن عرفانه في المخلوقات عوارض وآثار ومركبات في كثير من المخلوقات، إذ قد عجزت العقول عن معرفة كنه كثير من الموجودات فلو فكر المفكرون في ماهية الضوء نفسه لعجزوا عن معرفة كنه ذاته، وإنما يعرف منه ما يعرفه كل بصير وناظر له عينان لا غير وكذا معرفة النفس والروح وكنه العقل وكثير مما اشتمل عليه الإنسان الضعيف فإذا كان قد عجز عن معرفة كنه صفاته التي هي في جملته فكيف بصفات الله تعالى.

إن الإنسان البشري الموصوف بالعجز لحقيق بأن يعجز عن معرفة كنه صفات الله تعالى وإنَّهُ ليكفينا من العلم بها أنا نعلم أنه متصف بها وأنها من صفات الكمال، أما ما وراء ذلك فليس علينا تكليف في ذلك ولا طريق لنا إلى ذلك لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه فلو كلفنا بذلك لكان من تكليف ما لا يطاق فلئن كلفنا نفوسنا بذلك فقد كلفناها ما لا طريق إلى ذلك، ولا طاقة وهو قبيح عقلا، وأنت إذا تدبرت القرآن الكريم وجدته يدلنا على أن نصف الله بما وصف به نفسه، ويوجب علينا أن نوجه النظر والتفكر في المصنوع فقط فبذلك نصل إلى معرفة الصانع ووجوده وصفاته، أما كيفية الإتصاف فليس ذلك من واجبنا ولا يجوز أن نبحث عن ذلك.

ولبعض العلماء كلام في مثل هذا نورد منه زبداً «قال يجب علينا أن نعلم أنه موجود لا يشبه الأشياء أزلي أبدي غني حي قيوم عالم بكل معلوم قادر على كل شيء متفرد في وجوب وجوده كامل في صفاته، وأنه الخالق، وأنه سميع بصير

لطيف عليم خبير كما وصف نفسه في القرآن» أما البحث عن كون الصفات زايدة على الذات أو هي معاني أو أن السمع والبصر بمعنى الإدراك أو غير العلم بالمسموعات والمبصرات؛ وغير ذلك مما اختلف فيه النظار، وتفرقت فيه المذاهب في الأقطار وجرى فيه الخوض والجدال بين العلماء الصغار منهم والكبار من المعتزلة وغيرهم من الفرق مما مُلئت به الأسفار، فمما لا يجوز الخوض فيه ولم يكلفنا الله بذلك ولم يعطنا آلة نستعملها في ذلك بل خلق لنا عقلاً ندرك به ما كلفنا به وما به صلاح أمور ديننا، ودنيانا، ومصالح ديننا ودنيانا، وما علينا إلا ما تبلغه عقولنا وقد دلنا الله سبحانه على ما به تحصل المعرفة الواجبة وهو النظر في المخلوقات، وما اشتملت عليه من بديع الصنع وعجيب الخلق وهو دليل عظيم يوصل العاقل اللبيب إلى معرفة الله حق معرفته والعقل بطبعه الضروري وفطرته الشريفة عند التفكر في المخلوقات وعند مشاهدته لعظيم الحكمة في المصنوعات.

يعرف أن هذا لا يوجده إلا من اختص واتصف بالوجود، والحياة، والقدرة، والعلم، والقدم، وغير ذلك من صفاته جل وعلا على أكمل الوجوه وأبلغ الكمال والمخلوقون على عكس هذه الصفات موسومون بالعجز ولو اجتمع الخلق على إيجاد مثقال ذرة لما قدروا وقد وصفهم الله بالضعف قال تعالى: ﴿**خلق الإنسان ضعيفا**﴾ علم الله فيكم ضعفاً مع أن الانسان أكيس المخلوقات وأعظمها حدة وفكرة وتطور وأقوى تصرف لا يقدرون على إيجاد شيء من العدم ولا منع ما كتب عليهم.

والله ولي التوفيق والإصابة إلى أقوم طريق وهو حسبنا
ونعم الوكيل؛ انتهى الكلام في آيات التوحيد وهو
الجزء الأول ويليه الجزء الثاني باب العدل
وبالله الإعانة وما توفيقي إلا بالله

الجزء الثاني

باب العدل

حقيقة **العدل**: هو إعتقاد تنزيه الله تعالى عن فعل القبيح والقول بذلك واعتقاد أن أفعاله كلها حسنة فأفعاله وأحكامه وقضاؤه، وكل ما يصدر منه جل وعلا، فكل ذلك حسن وأنه لا يصدر منه شيء إلاّ وفي ذلك مصلحةٌ في الواقع وفي نفس الأمر فمن اعتقد هذا فهو عدلي، وهو نسبة إلى القول بالعدل.

ويجمع حقيقة **العدل** بأنواعه قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه وكرّم الله وجهه [العدل ألا تتهمه]، وهذه حقيقة رائعة وكلمة جامعة جمعت أنواع **العدل** وفنونه.

نعم فأفعال الله حسنة غير قبيحة عقلاً وشرعاً.

أما العقل، فإنه بعد ثبوت ما سبق من الله قادر عليم غني حكيم، فإن العقل يحكم أن من كان كذلك أن أفعاله لا تصدر إلاّ عن علم وإرادة قد علم كل ما يترتب على ذلك الفعل، ويعلم كل أسبابه، وما يتعلق به، وما ينتج عنه، وأنه لا يفعل العبث وهو الذي لا فائدة فيه أصلا، لأنه غني عن ذلك، ولو صدر منه لما كان حكيماً وقد ثبت أنه حكيم.

ولا نقول أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله كما قاله قوم حتى بالغوا في ذلك إلى حد يظن الناظر أنهم قد عدَّوه واحداً من المكلفين؛ ولا نقول كما قاله آخرون من نفي التعليل حتى بالغوا في ذلك إلى حد جوزوا عليه نقض ما أبرمه وإلى حد يصرحون أنه لا يقبح منه قبيح حتى جوزوا عليه الظلم والكذب؛ تعالى الله عما يقوله الظالمون ويفتريه الملحدون، سبحان ربك رب العزة عما يصفون والحمد لله رب العالمين.

واعلم: أن خلق الله للعالم عدل قضت بذلك حكمته البالغة، وكل ما خلق من حيوان، ونبات، وجماد، وأنهار، وشموس، وأقمار، وليل، ونهار، وغير ذلك مما تقصر دون حصره الأفكار وتجهل سرائر حكمته أولو الأبصار ولئن عرفنا من فنون الحكمة البالغة في خلق العالم يسيراً فقد جهلنا كثيراً.

والدليل من **النقل**: قول الله تعالى **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾** **﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو رب العرش الكريم﴾**،

وإجماع أهل الأديان السماوية أن أفعال الله لا تخلوا من حكمة ومصلحة، وأنه منزه عن العبث في أفعاله، وعن الكذب في أقواله.

ودليل آخر من **العقل** أن من القواعد المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث، والله هو العالم الحكيم الغني الكريم، ومن كان كذلك فلا يتصور أن يفعل العبث بل لا يصدر منه شيء إلاّ لأمر يترتب عليه فما ظنك بمصدر العقول ومنتهى الكمال، **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيءٍ إنه خبير بما يفعلون﴾**.

واعلم أن صنع الله الذي أتقن كل شيء مشحون بضروب من الحكم والمصالح مما حفظ به نظام العالم بأسره عن الفساد، واستقامت به مصلحة كل موجود من الحيوان والنبات وغير ذلك من أصناف المخلوقات، ويدلنا على أن أفعال الله تعالى مشتملة على الحكمة والمصلحة من العقل والنقل.

أما **العقل**: فنقول لا تخلو هذه المخلوقات التي وضع كل شيء موضعه، أما أن تكون معلومة له ومرادة؛ أم لا، الثاني باطل قطعا لاستحالة ذلك لأن علمه وسع كل شيء فهو يعلم بالفعل ويريده وما يترتب عليه من المصلحة ومحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباط لها به فوجود الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه، وإرادته فيجب الاعتقاد بأن أفعاله مرتبطة بالحكمة والمصلحة.

وأما **النقل** فقوله تعالى **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[1]، وقوله تعالى **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾**[2]، وأيضاً فإن خلق الله للخلق هو لبالغ حكمته وبيان قدرته وعلو شأنه وظهور برهانه ولأنه ليس من صفة الحكيم أن يكتم ويستر حكمته.

---

(١) [الدخان: ٣٨-٣٩].

(٢) [الأنبياء: ١٦-١٨].

أفْعَالُ الله كُلَّها حَسَنَةٌ

إن الله سبحانه غني كريم وعليم حكيم، ومن كان كذلك فإنه لا يفعل إلاّ ما كان حسناً لأن ما لا فائدة فيه تنافي كونه حكيماً عليماً وفعل القبيح ينافي كونه غني كريم، فيجب على المكلف أن يعلم ويعتقد أن الله تعالى ليس في أفعاله شيء من القبيح ولا الظلم ولا العبث وكل أوامره ونواهيه وقضائه حسن لأن كل ما كان منوطاً بالحكمة والمصلحة فهو حسن لا قبيح ولنا من الأدلة على ذلك من العقل والنقل:

أما **العقل** فقد تقرر أن الله عدل حكيم، وغني كريم، وقادر عليم، ومن كان بهذه الدرجة والكمال في كل صفاته فالعقل يحكم أنه لا يفعل القبيح؛ وأيضاً فإنه عالم بالقبيح وعالم بقبحه وهو مستغن عنه وعالم باستغنائه عنه ومن كان كذلك فهو يتعالى عن فعله وأيضاً فإنه ينهى عن القبيح لأنه صفة نقص والله بكماله وعلو شأنه يتعالى عن القبيح ويتقدس عن صفات النقص وعن أسبابها.

وأما النقل: فقوله تعالى **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**[1]، وقوله تعالى **﴿إن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح ءايات لقوم يعقلون﴾**[2]، وقوله تعالى **﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾**[3]، وقوله تعالى**﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾**[4]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

واعلم أن الله لا يقبل من المسلم عمله إلاّ أن يؤمن إيماناً صحيحاً لا ريب معه ويعتقد اعتقاداً صادقاً أن أفعال الله كلها حسنة لإشتمالها على الحكمة والمصلحة وما لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع فإنه بحاجة إلى يقظة

(١) [آل عمران: ١٩٠].
(٢) [الجاثية: ٣-٥].
(٣) [الأحقاف: ٣].
(٤) [الجاثية: ٢٢].

أكثر وفكر أكثر حتى يصل إلى الإعتقاد الصحيح، وإن قلباً لم ير أثر الله في مخلوقاته وأن مخلوقاته منوطة بالحكمة والمصلحة لقلبٌ أعمى غير سليم قال الله تعالى ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[1]، ولقد عرّفنا الله كثيراً من المصالح في المخلوقات، وبيّن ذلك في كثير من الآيات، كقوله تعالى ﴿**وإن لكم في الأنعام لعبرة**﴾ ويقول تعالى ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم**﴾، لو لم يكن في بعض المخلوقات إلاّ جمالها لكفى، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلاّ أنها تخيف لكفى، لأن الخوف من أعظم المصالح لأنها تعلّم الإنسان الحذر، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلاّ أنك ترى فيها عجائب الصنع وتعلم بذلك قدرة الله لكفى؛ فكيف وفيها منافع عظيمة للإنسان، قال تعالى ﴿**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾[2]، وقوله تعالى ﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار، وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾[3]، فليتدبر العاقل هذه الآيات ليعرف أن أفعال الله حسنة، وأنه لا يخلق شيء عبثا ﴿**فتعالى الله الملك الحق لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**﴾.

حُسْنَ التَّكْليف

التكليف من الله حسن لأنه تعريض للمكلف لدرجات عظيمة لا تنال إلاّ به ومعنى التعريض هنا أن الله أعلمنا بحسنه، وأنه طاعة له، وأنه تأدية لشكره وأخبرنا أن المكلف يستحق الثواب الجزيل الدائم بسبب التكليف إن قام به وأيضاً فإنه لا سبيل إلى استحقاق الثواب إلاّ به، والدليل على حسن التكليف من العقل والنقل.

---

(١) [الحج: ٢٢].

(٢) [النحل: ١٢].

(٣) [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

أما من **العقل** فإنّا نعلم في الشاهد أن كل من عرض غيره لمنافع عظيمة بفعل يقدر عليه فقد أحسن إليه ولذلك يحسن من الواحد منا تعريض أولاده، ومن يدبر أمره للمنازل الرفيعة والمنافع العظيمة بالتعلم، والتأدب فقد يكلف أولاده ومن يدبر أمره للمنازل الرفيعة، والمنافع العظيمة بالتعلم والتأديب ويتعبه ويسهر ليله من أجل تلك المنافع مواصلة القراءة، وغير ذلك مما يترتب عليه فوائد نافعة في مستقبله والتكليف وإن كان شاقاً على الطباع فإذا كان النفع العظيم لا يتم إلاّ به فالتكليف حسن قطعاً فتكليف الله لنا وما يترتب عليه من الفوائد العظيمة أفضل وأحسن وأقوى من تكليفنا لأولادنا من أجل فوائد نافدة منقضية ومنقطعة وإذا تأملنا تكليف ربنا وما فيه من الفوائد الدنيوية والأخروية ودوامها وجدنا التكليف يسيراً جداً ولأن المنافع الأخروية متيقنة الحصول والوقوع ودائمة البقاء ويقترن بها التعظيم والإجلال وسلامة من العذاب الأليم بخلاف منافع الدنيا في جميع ذلك.

هذا وأما **النقل** فقول الله تعالى ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض**﴾[1]، وقوله تعالى ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملونَ**﴾[2]، ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً**﴾[3]، وقوله تعالى ﴿**تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم**﴾[4]، وحديث جابر بن عبدالله الأنصاري قال خرج علينا رسول الله ﷺ فقال (إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً فقال إسمع سمعت أذناك، وعقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولاً يدعوا الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك فالله تعالى هو الملك، والدار الإسلام، والمائدة الجنة، وأنت يا محمد رسول من أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في

---

(١) [آل عمران: ١٣٣].
(٢) [النحل: ٩٧].
(٣) [النساء: ١٢٤].
(٤) [النساء: ١٣].

الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل مما فيها) من شرح الأساس فتكليف الله للعباد إذا نظرنا ما يترتب عليه وجدناه حسناً قطعاً، وفيه أيضاً منَّة ونعمة لا تساوي شيء أصلاً فهي نعمة عظيمة وفائدة كبيرة وجسيمة **﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾**.

نعم لقد طال النزاع والخصام في إطلاق لفظ الوجوب على الله في رعاية المصالح أم لا فمنهم من يطلق ذلك من دون مراعاة فيسمي الحكمة غاية وغرضاً وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يرده عن إطلاق إسم متى صح عنده معناه وقد يعبّر بالواجب عليه بدل الواجب له ولا يبالي بما يوهمه اللفظ من أن الواجب عليه يوهم التكليف والإلزام أو القهر والتأثر بالأغيار ورعاية المصلحة توهم النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص في العلم والغاية والعلة الغائية، والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته.

ونقول أنه يجب أن يتجنب في حق الله كل عبارة توهم نقصاً أو تشبيهاً أو يلزم منها ذلك **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعلمون﴾**[1].

أفْعالُ العبَاد

واعلم أن الإنسان بعقله السليم كما يحكم أنه موجود يحكم على أنه مدرك لأعماله وأن الأفعال الإختيارية لا تخرج عن الأكوان الواقعة بحسب مداركنا، وكما أنه يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية سيدرك نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقدرته، وإنكار ذلك مساوياً لإنكار وجوده يشهد لذلك بديهية العقل، وكما أن تنفعل به أنفسنا فإنا نجد في أنفسنا بالضرورة فرقاً وتمييزاً بين الحسن من الأشياء، والقبيح منها، ولا يمكن لعاقل أن ينكر صدور الفعل الإختياري من فاعله إن ذلك مشاهد بالضرورة يحكم بذلك الصبيان لنسبة ذلك إلى فاعله وأيضاً فإن الإنسان قد يحاول إرضاء شخص بفعل فيغضبه أو يطلب رزقاً فيفوته أو يسعى في منجاة فيسقط في مهلكة فيعود بالملامة على نفسه حيث أنه لم يحكم النظر في تقدير فعله فيتخذ وسيلة أخرى بنظر ثان وتقدير أحكم

---

(١) [الأعراف: ١٨٠].

فيعاود العمل بطريقة أقوم من الأولى وبوسائل أخرى قد اشتد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي فينبري لمناضلته، وتارة يتجه إلى محاولة أمر فقد يفوز بنجاح وقد يصده عن ذلك قوة غيره فيعرف أن هناك قدرة وراء تدبيره.

فالمؤمن كما يشاهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى.

وقد عرَّف العلماء حقيقة الشكر فقالوا: صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله وعلى هذا قامت الشرائع واستقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً من ذلك فقد أنكر الإيمان من نفسه وكابر عقله الذي شرَّفه الله به لفهم الخطاب في أوامره ونواهيه.

نعم إن كل فعل يصدر من العبد فهو فعله حسنه وقبيحه وخيره وشره لأنها تصدر بحسب قصدهم ودواعيهم وذلك معلوم بضرورة العقل يعلمه كل عاقل بل وغير العقلاء كالصبيان، والمجانين لأنهم ينسبون كل فعل إلى فاعله ويحكمون باستحقاق المدح على فعل الخير ويمدحونه ويحكمون باستحقاق الذم على فعل الشر، ويذمونه، ويستحقون المدح، والثواب، والذم، والعقاب، وبهذا صرح القرآن العظيم من نسبة الفاعل إلى فاعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر وذلك خلاف ما قضت به الجبرية الغوية من الجهمية، والأشعرية التي هي في كسبها وضلالها عميه فإنها كابرت عقولها وأنكرت الضرورة وجحدت أفعالها وحكمت بخلاف المعلوم وجعلت المُشاهد كالموهوم فنسبت أفعالها وتصرفاتها إلى الله؛ تعالى الله علواً كبيراً وذلك منهم باقتداء بالشيطان واحتذاء لما قالته الشجرة الملعونة في القرآن واتباعاً للأهواء ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**﴾ وقد رد الله عليهم وأكذبهم ولعنهم على لسان سبعين نبياً قال ﷺ (القدرية مجوس هذه الأمة هم خصماء الرحمن وشهود الشيطان) وفي بعضها (لعنهم الله على لسان سبعين نبياً).

واعلم أنه يلزم مذهبهم هذا إبطال للتكاليف العقلية وهدم للشريعة المحمدية وإبطال للنبوة ونسبة كل قبيح إلى بارئ البرية وما أدى إلى هذا فيحكم بتكفير قائله، وتعطيله والتكفير، في حقه قليل حيث أنه ينسب كل قبيح وكل نقص وذم إلى الملك القدوس ذي الجلال والإكرام.

والدليل العقلي كاف في الرد عليهم حيث أنه ينسب الفعل إلى فاعله، وعليه يمدح، ويذم، ويثاب، ويعاقب.

وتأمل أيضاً فإن الله شرع القصاص في القاتل عمداً، وحكم بجلد الزاني غير المحصن، ورجم المحصن، وأنواع الحدود والعقوبات، فكل ذلك موضوع إستحقاق على الفعل فلو لم يكن فعله لكان ذلك ظلماً.

وتأمل ثانياً أن المخترع لأي عمل من الأعمال الحكيمة والهندسة القويمة وفي استخراج الأشياء القريبة المحكمة من كل الإختراعات والإستخراجات كل ذلك ينسبها الناس جميعاً إلى فاعلها ويكون لهم المزية العظيمة على غيرهم بها عند الناس حتى أنهم يعطونهم الجوائز الجزيلة النافعة وهم يفتخرون على غيرهم ولهم المنة الكبيرة على من سواهم، أتراهم ينسبون ذلك الفعل إليهم ويحمدونهم على ذلك، إلاّ لأنه فعلهم، وإلاّ فنسبة الفعل إلى غير فاعله غلط وقبيح، ولو قيل للمخترع هذا الفعل ليس فعلك وإنما هو لغيرك وأنت لست إلاّ آلة لغيرك لأنكر هذا القول واستجهل قائله.

وكذلك أعمال المهندسين، وأعمال أهل الطب في المعالجات ومزاولة أعمال المرضاء والإحسان الكبير إليهم إذا كان ذلك فعل غيرهم فذلك غلط عليهم، ولم يستحق العامل على عمله أجراً، ولم يستحق المتخرج في أي عمل أو دراسة الجائزة ويمدحون الناجح في ذلك وهو يسهر ليله ويتعب نهاره، وإلى غير ذلك مما لا طاقة لحصره، وإنما قصدنا لفت النظر إلى أعمال الإنسان وأنه الفاعل وكل عمل ينسب إلى فاعله وأن القول بخلاف ذلك ضرب من الجنون، ولا يسمح العقل ولا الدين أن يذهب أحد إلى أقوال المجبرة الغوية المتخبطة في ظلمات الجهل بعد أن أطفو أنوار عقولهم وتركوا القرآن خلف ظهورهم وخرجوا عن حدود الإنسانية إلى جنس الحيوانية لأن كل موجود متى حصل له توابعه من المميزات حتى يكون خارجاً عن جنس البهائم بأن يكون ذا عقل مفكراً في أعماله مختاراً في تصرفاته على مقتضى فكره فوجوده الموهوب من واجب الوجود متبع لمميزات ولو سلب شيئاً منها لكان ملكاً أو حيواناً آخر والغرض أنه الإنسان.

واعلم أن أعظم شبهة توردها القدرية المجبرة على اختلاف طبقاتها وأقوالها هو أن علم الله حيث أنه سابق ومحيط من الإنسان بإرادته وتصرفاته وأوقاته فلا يمكن أن يخرج عن العلم السابق وأنه لو تخلف كان جهلاً في حق الله إلى آخر ما يلبسون بذلك، فنقول إنه لا شيء من العلم سالب للاختيار في الأفعال وكونها في علم الله لا بدّ من وقوعها لا محالة ذلك إنما جاء من حيث الواقع، والواقع لا يتبدل فعلم الله في الواقع تابع وإن تقدم العلم على الوقوع فهو حيث أنه سيقع لا محالة حيث أنه علم الله كاشف لما يكون فهو سابق غير سائق.

ولنا أدلة عقلية جلية منها: لو أن عبداً عصى سيده فهو يعلم علماً يقيناً أن عصيانه لسيده هو باختياره، وإذا عزم على عصيانه في المستقبل وأصر على عصيانه في كل أمر يأمره به في المستقبل فهو يعرف ذلك من نفسه، وأن ذلك بإختياره، ولو عرف أنه سيعاقبه فليس لعلمه بعصيانه لسيده أي تأثير على إختياره، وكذلك علمك بأن فلان سيفعل كذا بإختياره ليس له تأثير في شيء من الفعل أو الترك، كعلمك بأن فلان سيغادر بيته ويسافر، وكذا علمك بأنه سيموت، وعلمك بأنك ستموت، فهذا العلم لا تأثير له فيما سيكون، وهذا شيء واضح ومفهوم، ولا يقال أن علم الله لا يتخلف، فنقول علمك بالموت لا يتخلف، ولكن أن من بلي بمرض التقليد لا يصح في ذهنه شيء مما خالف ما قد انطوت عليه عقيدته مهما بلغ المعبر في الإيضاح وطالت العبارات أو قصرت لأن المقلد يعتقد الأمر كمقلدة ولو طلب الدليل أو رده عليه من غيره فلا يقبله إلاّ موافقاً لما يعتقده فإن جاءه الدليل بما يخالف إعتقاده نبذه وأصر على دفعه وإبطاله وإن أدى ذلك إلى جحد المعلوم عقلاً.

ومن اعتقد ثم استدل فهو سالك طريق غير معروف ومتبع لنهج غير مألوف وفي ذلك قلب لسنة الله في خلقه وتحريف لهداية الله في شرعه؛ وفيما ذكرنا كفاية لمن له عقل سليم وهي أدلة عقلية.

وأما من النقل فكثيرة جداً.

الآيات القرآنية

الآيات في القرآن التي تدل على نسبة أفعال العباد إليهم كثيرة وكثيرة بل قال بعضهم إن القرآن من أوله إلى آخره يرد على المجبرة ويكفي من ذلك رد الله عليهم والتشنيع عليهم وتكذيبهم بقوله تعالى ﴿**وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليه آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[1]، وفي هذه الاية ردٌ صريح لأنه حكى ما يقولونه ويعتقدونه ثم رد عليهم رداً صريحاً لا شبهة ولا احتمال وكفى بذلك دليلاً وأنك إذا تأملت وجدت في هذه الآية ثلاث ردودات؛ قوله ﴿**إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾، والثاني الإستفهام الإنكاري: وهو قوله تعالى ﴿**أتقولون على الله تعالى ما لا تعلمون**﴾؛ والثالث التقول على الله بغير علم وذلك أمر عظيم وقول سقيم وقد نبهنا الله بآيات كثيرة إن الإنسان موكول إلى إختياره ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[2]، وقال تعالى ﴿**فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾[3]، ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[4]، ﴿**اعملوا آل داوود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور**﴾[5]،﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾[6]،﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾[7]، ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون**﴾[8]،﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغيِّ يتخذوهُ سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾[9]، ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم**

---

(١) [الأعراف: ٢٨].
(٢) [الكهف: ٢٩].
(٣) [الشمس: ٨-١٠].
(٤) [الزلزلة: ٧-٨].
(٥) [سبأ: ١٣].
(٦) [فصلت: ١٧].
(٧) [فصلت: ٤٦].
(٨) [الأنبياء: ٩٤].
(٩) [الأعراف: ١٤٦].

لعلكم تذكَّرون﴾[1]، **﴿ليس بأمانِّيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾**[2]، وكم من آيات كثيرة ومن قوله تعالى **﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾**، **﴿بما كانوا يفعلون﴾**.

فانظر وتأمل هذه الآيات فالله ينهى عن الظلم وعن القبيح ويتهدد ويتوعد من يعمل ذلك فكيف ينسبون القبح والظلم إلى الله وينزه نفسه الظالمة الأثيمة، لا قوة إلاّ بالله **﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾** **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾** **﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾** **﴿ولا يحب الفساد﴾** وغير ذلك إن القران كله ينسب الفعل إلى فاعله بقوله تعالى [يكسبون؛ يعملون؛ يفعلون؛ يصنعون؛ ويظلمون؛ ويكذبون؛ وتظنون بالله الظنونا؛ ويقولون على الله الكذب وأنتم تعلمون؛ وتفترون على الله الكذب؛ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب؛]. ولا قوة إلاّ بالله.

واعلم أن الإنسان يحب العدل وقد جُبل على حب العدل لأنه حسن، والعقل يحب الحسن، فالإنسان يحب العدلَ والله هو خالق الانسان والذي فطره على حب العدل وخالق العدل يحب العدل. ومما لا شك فيه أن الله الخالق وأنه أكمل وأعلى وأجل وأعظم **﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾**.

نعم والالآم من الله حسنة للمكلف وغيره لأن فيها عوضاً، واعتباراً أو لدفع ضرراً أعظم منه أو لحط الذنوب إذ هو من دفع ضرر أعظم أو لتحصيل سبب الأجر وهو الصبر أو لمصلحة لا نعلمها والأدلة على ذلك كثيرة، قال تعالى **﴿يمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾** وحديث (من وعك[3] ليلة كفِّر عنه ذنوب سنه) وعنه ﷺ (من وعك ليلة كفِّر عنه ذنوب سنة) وعنه ﷺ (ومن وعك ليلة فصبر ورضي عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، وعنه ﷺ (المريض تحاّت خطاياه كما تحات أوراق الشجر) وأخرج القاضي جعفر عنه ﷺ أنه قال (إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم عافاه الله منه كان ذلك كفارة له فيما مضى وموعظة له في المستقبل). وهو في أمالي أبي طالب عليه السلام.

---

(١) [النحل: ٩٠].

(٢) [النساء: ١٢٣].

(٣) وعك: أصابه الحمى.

العقول الضالة

إن قوارع الحجج الدامغة والبراهين النيرة تواجه أباطيل العقول الضالة، وتزيل شبه الأفكار الملوثة الباطلة فالقرآن الكريم يحكى شبههم الباطلة ويصرح بكذبهم على الله تعالى ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون**﴾[1]، فتأمل فإن الله صرح بكذبهم وأنهم جاهلون فليس عندهم علم وأنهم يتبعون الظن وهذا رد صريح ومقنع، وقد نكثهم الله بالإستفهام التوبيخي الإبطالي، ثم يشير جل وعلا أن تبليغ الرسل الكرام صلوات الله عليهم فيه الحجة البالغة عليهم وحجة الله ظاهرة وبالغة؛ ﴿**قل فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾ لو شاء مشية قسر وإلجا لَمَا كان ذلَك على الله بعسير ولكنه أراد العمل بالإختيار ليتم حسن التكليف ويبلغ في المعذرة ويكمل في الحجة عليهم وليبين أنه وكلهم إلى إختيارهم ولا يتم العدل إلاّ بذلك مع التمكين وإزالة الموانع وقد فعل جلّ وعلا ﴿**ليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيى من حيَّ عن بينةٍ وإن الله لسميع عليم**﴾[2].

واعلم أن هؤلاء الفرق الضالة من الجهمية والأشعرية القدرية ومن اتبعهم نظروا إلى عموم مشيته ولم ينظروا إلى مشيتهم فأرادوا أن يقيموا الحجة بكماله، وعموم قدرته وسابق عمله فأقام الله عليهم الحجة بمشيتهم وإرادتهم وقدرتهم التي يستعملونها في غير الطريقة الصحيحة؛ تأمل ترشد؛ (والله ولي التوفيق.

---

(١) [الأنعام: ١٤٨].

(٢) [الأنفال: ٤٢].

زَيغُ القُلوب في تأويل المُتَشَابه

إن من الخطأ الواضح والزيغ الفاضح تأويل القرآن تبع الأهواء وفهمه على ما يطابق الآراء والله تعالى يقول ﴿**وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾ فمن ذلك تأويلهم قول الله تعالى ﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ إن ذلك على طريق الجبر والغلبة والقهر وإن المشيئة لله في فعل العبد وخيره وشره وليس للعبد إختيار في شيء ويخرجون هذه الآية وما شابهها على طبق مذهبهم الخاطئ والفهم السقيم المخالف لمحكم القرآن وقضايا العقل وما جاء من السنة من الرسول الأمين ﷺ مع أنا نعرف جميعا وذلك عند المُخالف والموالفْ إن في القرآن محكماً ومتشابهاً، وأن المحكم هو أم الكتاب إليه يرجع ما التبس من المتشابه وأن إتباع المتشابه هو الزيع الذي ذكره الله ﴿**ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**﴾ وأن من الواجب على العالم أن يخرج معاني ما تشابه منه على ما يطابق محكمه مع قضية العقل فمعنى الآية المذكورة الحُكم والتسمية وعلى ذلك تأويل الأئمة والمحققين من العلماء الأثبات، وفي ذلك التأويل مطابقة لقضية العقل وللأيات المحكمة كقوله تعالى ﴿**كل يعمل على شاكلته**﴾ ونحوها من الآيات الكثيرة ولذلك التأويل شواهد عربية والقرآن عربي مبين قال شاعرهم:

لا زال يهدي قومه ويضلنا جهراً وينسبنا إلى الفجار

وغير ذلك من الآيات التي يمنع من حملها على ظاهرها صرائح القرآن ومحكم العقل والتبيان وحمل المتشابه على ظاهره هو ميل عن واضح البيان وكذلك قوله تعالى ﴿**ختم الله على قلوبهم**﴾ ﴿**وطبع على قلوبهم**﴾ والختم والطَّبعْ هي العلامة في القلب والطبع في التحريك هو شيء يكون في الصقيل ومنه طَبْعُ رسول الله ﷺ على إبل الصدقة وذلك شيء معروف ويفسر هذه الآية قوله تعالى ﴿**بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾[1]، والرين: هو شيء يحدث في القلب من جراء الأعمال الفاسدة، وكذلك قوله تعالى ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**﴾[2]، وهذه الآية فيها مشاكله وهي معروفة عند أهل العلم

(١) [المطففين: ١٤].

(٢) [الصف: ٥].

ومعنى أزاغ الله على قلوبهم حكم عليهم بالزيغ حين اختاروه لأنفسهم لما زاغوا حكم الله عليهم بزيغ قلوبهم والمشاكلة في القرآن كثيرة نحو ومكروا ومكر الله وهي كثيرة في لغة العرب كقوله:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبةً وقميصا

وفي ذلك شيء كثير كقوله تعالى ﴿**لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله**﴾ فإسناد المشية في أول الآية تفسر وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ومشية الله هنا المقصود بها العلم والإحاطة فلا يعزب على الله شيء من أعمالهم وإن إرادة الإنسان واختياره موجودان ولم يسلب الإنسان حريته واختياره وإن إرادة الله وما كتبه وعلمه لا يسلب الإنسان من إختياره شيئاً فالعلم كاشف لا مجبر وعلمه سابق غير سايق وإنما هو كاشف، وكشف وإطلاع على الآسرار الغيبية قبل وقوعها فسبحان من أحاط بكل شيء علما.

نعم ودعواهم أن الاعتقاد بأن للعبد قدرة وفعل واختيار يؤدي إلى الإشراك بالله أو إن ذلك مغالبة لله وأن فعل العبد لما لا يريده الله مغالبة فذلك دعوى ممن لم يعرف ما جاء في الكتاب والسنة ولم يفهم حكم الله في خلقه ولم يعرف معنى الشرك المذموم إن الشرك لظلم عظيم، ومعنى الشرك في الحقيقة هو إعتقاد أن لغير الله أثر فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة أو أن لشيء من الأشياء سلطان فوق سلطان الله وتوجيه العبادة التي لا يستحقها إلاّ الله إلى غير الله أو اعتقاد أن أحداً يستحق من التعظيم ما يستحقه الله أو يعظم غير الله مستعيناً به فيما لا يقدر عليه إلاّ الله فجاءت الشريعة المطهرة بمحو هذه الإعتقادات وإذهاب الشرك بأنواعه وجاءت الشريعة أيضاً بأن للعبد قدرة يكسب بها ما يريده ويشاؤه ويختاره فما هو وسيلة إلى السعادة الأبدية، أو عكس ذلك إلى الشقاوة الأبدية وإن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات المخلوقات لله وأن الله قادر على أن يحول بين العبد وإنفاذه ما يريده وهو متصرف في خلقه المدبر لمخلوقاته جميعاً وأن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً ولم يكلف عسيراً وأن الله مكّنه من كل ما كلفه به ويجب على العبد أن يعتقد ويؤمن بأن الله كلفه وأقدره على ما كلف به وأنه يعمل باختياره حيث أن الله مكّنه من الفعل والترك فيجب على العبد أن يعتقد أن قدرة الله فوق كل قدرة وأن له السلطان الأعلى

في إتمـام مراد العبد بإزالة الموانع وكل الأسباب المانعة من الأفعال وأن الله قد هداه وأزاح جميع العلل والموانع وقد أوضح النجدين وأبان السبيلين وأكمل الحجة وأوضح المحجة ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما**﴾.

العُلَماءُ مَعَ الحجَاجَ

روي أن الحجاج بن يوسف كتب إلى الحسن البصري وإلى واصل بن عطاء وإلى عمر بن عبيد يسألهم عن العقوبة على أفعال الشر، وهل هي من أفعال الله أو من أفعال الفاعلين فكتب إليه الحسن جواباً بقوله ما سمعت في ذلك إلاّ قول على عليه السلام [أترى أن الذي نهاك دهاك وإنما دهاك أسفلك وأعلاك والله برئ من ذاك].

وكتب إليه واصل بن عطاء جواباً بقوله ما سمعت فيه إلاّ قول علي عليه السلام فإنه قال: [أيريك الطريق ويأخذ عليك المضيق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً]، وكتب إليه عمرو بن عبيد جواباً بقوله ما سمعت فيه أو في ذلك إلاّ قول علي عليه السلام فإنه قال: [إذا كان القضاء حتما كانت عقوبة المأمور ظلما]؛ فلما وصلت كلها مسندة إلى أمير المؤمنين عليـه السلام قال قاتلهم اللـه لقـد أخذوها من عين صافية أهـ.

واعلم أن الإنسان بما أوتي من العلم والقدرة والعقل الكامل أهلته للتكليف وجعل له الخير والشر فتنة كما قال تعالى ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنـة وإلينا ترجعون**﴾ ومما كلفنا به أنه فرض علينـا أن نحاول التغلب على كثير من الميولات والرغبات والأهواء والشهوات وأن نكون على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص قد حدده لنا الوحي الإلهي وجاء به رسله صلوات الله عليهم وعلى هذا فانحراف الإنسان عن هذه ضلال مبين مع أن الإنسان مستطيع أن يتخلـى ويبتعد عن الضلال وأنه قد فرض عليه أن يعمل ويتحقق معنى الإبتلاء الذي كلف من أجله ولذا ورد في الحديث المشهور (حفت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات)، واللـه قد أوضح الطريق وأبان السبيلين كمـا قال تعالـى ﴿**وهديناه النجدين**﴾، ﴿**ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾، ﴿**يوم تجد كلُّ نفس**

ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينهُ أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾[1]، وقال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه [ولو كان القضاء حتما كانت عقوبة المأمور ظلماً ولو كان القضاء لازماً والقدر حتماً لبطل الثواب والعقاب ولسقط الوعد والوعيد وما كانت تأتي مذمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ولا المذنب أولى بعقوبة الذنب من المحسن وإنما تلك مقالة أخوان الشياطين وعبدة الأوثان وخصماء الرحمن وشهود الزور وأهل البغي والفجور وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً ولا بعث الأنبياء عبثا]. **﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾**[2].

نعم والقول بالعدل والتوحيد وهو الذي بُعث عليه الأنبياء والمرسلين وقول الصحابة والتابعين وأعيان الإسلام وأئمة الدين الأعلام وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليه فليكن العبد على بصيرة من أمره ويتثبت في دينه ويأخذ دينه ممن أمر الله الأخذ منه ويتدبر لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال الرسول الأعظم ﷺ وأرشدنا إلى ذلك حين يقول (من أخذ دينه عن أفواه الرجال وقلدّهم فيه مالت به الرجال من يمين إلى شمال وكان من دين الله على أعظم زوال ومن أخذ دينه عن التدبر لكتاب الله والتفهم لسنتي زالت الرواسي ولم يزل) الحديث المشهور.

أما من نزهت نفوسها ونسبت كل قبيح إلى خالقها والمنعم عليها فكفى بذلك كفراً وبواراً وعاراً وشناراً.

حكاية: سأل عدلي مجبري قال: ما تقول فيمن نسب الفواحش من الكفر والفسوق وأنواع الفجور وعبدة الأوثان وكل قبيح إلى رسول الله ﷺ ما تقول فيه؟

قال أقول: زنديق كافر يستحق القتل.

---

(١) [آل عمران: ٣٠].

(٢) [الأنعام: ١٠٤].

قال: العدلي ولِمَ؟

قال: لجراءته على رسول الله ﷺ.

قال: العدلي فإن نسبها إلى أبي بكر؟

قال: يجلد، ثم يرجم.

قال: العدلي ولِمَ ذلك؟

قال: لسوءته على صحابة رسول الله ﷺ.

قال: العدلي فإن نسبها إلى عمر؟

قال: كذلك يجلد ويرجم.

قال: العدلي فإن نسبها **إلى الله تعالى** قال فسكت المجبري وبهت.

حكاية أخرى: جاء مجبري إلى نصراني يعالج عينه فعالجها فقال أيها النصراني قد أحسنت إلي فإني أريد أن أنصحك؛ قال وما ذاك؟

قال أسلم قال النصراني تريد نصحي وإسلامي؟

قال: نعم.

قال: فالله يريد نصحي وإسلامي؟

قال: لا

قال: فأيكم أحق أن أعبد؟

قال: فسكت المجبري ولم يرد جواباً.

قلت: فهكذا تكون الفضيحة والخزي على من ضل عن الحق وتعدى الصدق وعدل عن الصراط المستقيم ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

إنتهي الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

الجزء الثالث

الوَعْد والوَعيدْ

إن الله سبحانه قضت حكمته البالغة أن يجعل داراً بعد هذا الدار هي دار الآخرة ليجازي فيها كل عامل بما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والقرآن يصرح بالدار الآخرة في كثير من الآيات ويصرح بأن الدار الآخرة هي المرجع والمآل وفي ذلك لطف للمكلفين لينظروا إليها ويكون قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى راجين ثوابه وتجد في القرآن آيات كثيرة تندد بالبعث والنشور وتخوف بأهوال ذلك اليوم الموعود وتحث على الإيمان بالبعث لأن في ذلك صلاح العقيدة ولها شأنها من الصلاح والإصلاح في هذه الدار لأن الإنسان إذا استقرت فيه هذه العقيدة وآمن بالبعث إيماناً صحيحاً لا يخالطه شك ولا ريب فإنه يكثر فيه الخير والإحسان وتباعد عن الشر والإفساد ويكثر الصلاح والإصلاح، إلاّ أن الإنسان في كل عصر تغلب عليه الحياة الدنيوية وتخدعهم بزخارفها ومتاعها الفاني فكثير ممن يغلبه هواه يعتريهم الشك في البعث ودار الجزاء لا يصدقون أنهم يبعثون بعد الموت ويحاسبون، أما لأن ذلك أمر لا تدعوا إليه حاجة وليس وراء ذلك مصلحة في نظره أو الإستبعاد حيث أنه يشاهد أجساد الأموات تتفرق وتفسد وتفنى في الأرض فلا يكاد يسلم عقولهم أن يصدقوا بعودة جسماً سوياً وإنساناً حيوانياً كما كان لعدم معرفتهم بربهم وبكمال قدرته ولأنه مخالف لعقولهم في مستوى تفكيرهم ومعتاد أفعالهم وقد رد الله تعالى عليهم هذا الإستبعاد وقاس الإعادة بالبداية والإعادة أهون من البداية عقلاً فقال تعالى ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾[1]، وقال تعالى ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾[2]، ومن لم يعرف الله ويعرف كمال قدرته لا يقر إلاّ بما يألفه ويعتاده لأن المدار هو الإيمان بالله ومعرفة عدله وأنه لا بد من التناصف وأن يأخذ الله للمظلوم من الظالم حيث أنه جلّ وعلا خلى بينهم في هذه الدار فمن عدل الله وحكمته مع وقوع التخلية وأن يأخذ للمظلوم من الظالم ومن عرف الله حق معرفته قطع بهذا. والله الموفق.

---

(١) [يس: ٧٨-٧٩].

(٢) [الروم: ١٧].

المُجَازَاةُ

إن الله بحكمته وعظيم قدرته وفضله جعل الثواب لمن أطاعه والعقاب لمن عصاه، وحقيقة الثواب هي: المنافع المستحقة على جهة الإجلال والتعظيم وحقيقة العقاب: هو المضار المستحقة على جهة الإهانة فيجب على كل مكلف إعتقاد ذلك والإيمان بذلك وهما معلومان من ضرورة الدين ويدل على ذلك العقل والنقل.

أما **العقل** فإن الإنسان العالم والجاهل له شعور خفي يشبه الإلهام بأن وراء هذه الدنيا حياة أخرى يتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا ينال فيها الإنسان جزاء عمله حتى أن الله لو أسدى إلى الإنسان ما أسدى من المواهب العظيمة ثم تركه بعد ذلك سدى لكان من العمل الخالي عن الحكمة البعيدة عن العدل إذ هو معرض لكل مصيبة ومحنة ومع أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بحكمته، ومكنهم، وخلا بينهم ورفع الموانع فتمكن الإنسان من ظلم أخيه وأخذ ماله مع أن الله مع ذلك نهاهم عن التظالم في الأنفس، والأعراض، والأموال وفرض المجازاة، وأباح لنا الإنتفاع بكثير من المنافع من ذلك الحيوانات، منها ما يذبح، ومنها ما يحمل، ومنها ما يعمل إلى غير ذلك من المنافع العظيمة، وضمن لها العوض وجعل المخلوقين من الجنس البشري وغيره فرقاً شتى متفاوتة في أكثر الأشياء فمنهم الفقير، والغني، والصحيح، والسقيم، والمعافى، والعليل، وناقص الخلقة، وكاملها، وتسخير بعضهم لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿**نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمتُ ربك خير مما يجمعون**﴾[1].

وقد شاهدنا الكثير يموتون أو يقتلون وهم على ما هم عليه لم يقع تناصف ولا مساواة في هذه الدار ومن الأنعام ما يذبح، وما يظلم، وما يموت من الأمراض والأعراض ولم ينالوا من العوض شيئاً وقد تحقق عدل الله وحكمته وفضله فمن هنا وبما ذكرنا يقطع العقل بأنه لا بد من المجازاة والتناصف والمساواة ولا بد من دار يقع فيها التناصف ويعوض كل منقوص لما تحقق من

---

(١) [الزخرف: ٣٣].

عدل الله وحكمته؛ وانظر إلى قصة قس بن ساعدة العربي المفكر عرف ربه بنظره وعقله وهو في وقتٍ أهل زمانه يعبدون الأصنام والناس في غفلة ولم يكن هناك ابن يرشد أو يخبر عن الله روي عن ابن عباس عن الرسول ﷺ (أنه قدم وفد إياد فقال رسول الله ﷺ هل فيكم من يعرف قس بن ساعدة؟).

قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله قال (كأني به في سوق عكاظ يخطب على جمل يقول: أيها الناس اسمعوا وعوا واتعظوا وانتفعوا كل من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت مطر ونبات وآيات بعد آيات بساط مبسوط ومهاد موضوع وسقف مرفوع وشهاب متبوع والله إن في السماء لخبراً وفي الأرض لعبراً معاشر إياد أين ثمود أين عاد أين الآباء والأجداد أقسم قس بالله لا كاذباً ولا آثماً إن كان في الأرض رضا ليكونن فيها سخط والله إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا أين القرون الماضية ديارهم خاوية) وفي رواية أخرى في قوله: (والله إن لله داراً غير هذه يجازي فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته) أهـ.

فهذا آمن بالآخرة بواسطة عقله بالتفكر والنظر والتدبر والله الموفق.

وأما النقل فقوله تعالى **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أممٌ أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾**[1]، وقوله تعالى **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيءَ بالنبيِّن والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا﴾**... الآيات[2]، وقوله تعالى **﴿ويوم نسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾** إلى قوله تعالى **﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾**[3].

---

(١) [الأنعام: ٣٨].

(٢) [الزمر: ٦٨-٧١].

(٣) [الكهف: ٤٨-٤٩].

آياتُ التَّخْليد

قال تعالى ﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين، وما هم عنها بغائبين﴾[1]، وقال تعالى ﴿فأمَّا من طغى، وءاثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾[2]، وقال تعالى ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾[3]، وقال تعالى﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده ندخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾[4]، وقال تعالى ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾[5]، ﴿والذين كفروا لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾[6]، ﴿فما للظالمين من نصير﴾ وقد رد الله على من زعم أن النار لا تمسه إلاّ أيام معدودات، فقال تعالى ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودةً قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[7]، وقوله ﷺ (من تحسى سمًّا فسمه في يده يتحساه في النار خالداً مخلداً ومن تردى من جبل فهو يتردى من جبل في النار خالداً فيها مخلداً ومن وجأ نفسه بحديدة فحديدته في يده يوجأ بها في النار خالداً مخلداً) وغير ذلك من الآيات التي تتلى ومن الأحاديث التي تملى يكثر ترادها ويشق تعدادها الدالة على البعث والنشور وعلى دار الجزاء والحساب وعلى أنه من مات مؤمناً ففي الجنة مخلداً أبداً وعلى من مات عاصياً مصراً على ذلك غير تائب ففي النار مخلداً أبداً فيجب على المكلف إعتقاد ذلك ولا بدّ لنا أن نقضي بما قضى به الكتاب والسنة ولا اعتماد على أقوال المضلين وكثير من المرجئة الغاوين الرادين لمحكم الكتاب العظيم وسنة الرسول الكريم

---

(١) [الانفطار: ١٣-١٦].
(٢) [النازعات: ٣٧-٤١].
(٣) [الجن: ٢٣].
(٤) [النساء: ١٤].
(٥) [الزمر: ٧٢].
(٦) [فاطر: ٣٦].
(٧) [البقرة: ٨٠-٨١].

وقد رد الله عليهم وكذبهم وأبطل أمانيهم بقوله تعالى ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾[1].

الإيمان

لا بدّ لنا أن نشير إلى حقيقة الإيمان وأركانه بالرد على المرجئة الذين يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل إضافة على ما سبق والله قد رد عليهم في الآية السابقة آنفاً ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب**﴾.

فحقيقة الإيمان في اللغة: التصديق المطلق.

وفي الشرع: قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، ويدل على ذلك آيات كثيرة فمنها قوله تعالى ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾[2]، فشرط في الإيمان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وقوله تعالى ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون إلى قوله تعالى ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون**﴾.

وأركان الإيمان ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره؛ والخير من الله النعم وما إليها والشر كما في قوله تعالى ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾ وقوله تعالى ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات**﴾.

والشر من الله هو خير وإنما سماه الله شراً باعتبار ما نجده نحن وإلاّ فكل ما أنزله الله علينا وما ابتلانا به فهو خير فمن آمن بما ذكرنا فهو المؤمن حقا، ومن أقر بلسانه فقط فهو منافق ومن أقر بلسانه واعتقد بجنانه، ولم يعمل فهو فاسق، ومن ترك الكل فهو كافر ولكل واحد درجة ومعاملة في الدنيا ودرجة في الأخرى.

والإيمان بضع وسبعون شعبة كما ورد في قوله ﷺ (الإيمان بضعة وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة

---

(١) [النساء: ١٢٣].

(٢) [الأنفال: ٣].

من الإيمان) أخرجه المرشد بالله في أماليه، وأخرج الناصر في البساط، والمؤيد بالله في الأمالي عليهما السلام بإسنادهما عن جعفر الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ (من أسبغ وضوئه وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله وخزن لسانه وكف غضبه وأدى النصيحة لأهل بيت نبيه فقد استكمل حقيقة الإيمان وأبواب الجنة مفتحة له) إلى غير ذلك.

نعم والإيمان يزيد وينقص بصريح قوله تعالى ﴿**فأما الذين آمنوا فزادهم إيماناً وهم يستبشرون**﴾ وقوله تعالى ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾.

والإيمان يزول بارتكاب الكبائر كما دل على ذلك الحديث المشهور وهو قوله ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) لأنه إذا فعل ذلك أو غيرها من الكبائر التي توجب الفسق انتزع منه الإيمان وصار فاسقاً لأنه لا يجتمع الإيمان والفسق.

وأما المنافق فهو يظهر الإسلام ويبطن الكفر وقبحه عظيم وذنبه جسيم وهو في أسفل درك من النار وقد أنزل الله في المنافقين في أول سورة البقرة نحواً من ثلاثة عشرة آية كلها تندد بقبح صفاتهم وأنهم شر الخلق والخليقة وأنزل الله فيهم سورة المنافقين وأكثر آيات سورة براءة حتى فضحهم الله وبين مخازيهم وكذبهم وأنهم يخادعون الله تعالى ورسوله ﷺ.

فَصل في التَوبَة

والتوبة واجبة عقلاً، ونقلا.

أما **العقل**: فلكونها لدفع ضرر عن النفس، ودفعه واجب عقلا، والضرر هو العذاب الأليم مع الخلود في العذاب السعير: وأما **النقل**: فقوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا**﴾، وقوله تعالى ﴿**أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه**﴾.

وللتوبة شروط وأركان؛ فأما شروطها فهي: أن تكون عامة من كل معصية لأن الله يقول ﴿**فإنه يتوب إلى الله متابا**﴾ وهذا توكيد يقتضي أن تكون التوبة من كل شيء وقال تعالى ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾؛ وإذا بقي مصراً على بعض المعاصي فليس له عند الله أي محبة أو قبول.

وأما أركانها فلها ركنان: **الندم** على ما عمل من القبيح أو أخل به من الواجب.

والعزم على عدم العودة على ما قد عمل من المعاصي، وهي مقبولة مع الإخلاص والإقلاع في كل وقت إلى أن يغرغر بالموت قال تعالى ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات**﴾ وتجب المبادرة إلى التوبة عقيب التلبس بالمعصية لأن العاصي مخاطب بأدائها لأن تركها إضرار والإضرار معصية فيجب أن يبادر بها قبل الفوات والحلول بمساكن الأموات.

نعم أما أمير المؤمنين كرّم الله وجهه فجعل لها ستة أركان روي ذلك في نهج البلاغة حين سمع رجلاً يقول أستغفر الله فقال عليه السلام [ثكلتك أمك أتدري ما الإستغفار؟ إن الإستغفار درجة العليين؛ وهو إسم واقع على ستة معاني].

أولها: **الندم** على ما مضى.

الثاني: **العزم** على ترك العود إليه أبداً.

الثالث: أن **تؤدي** إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعه[1].

الرابع: أن **تعمد** إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

الخامس: أن **تعمد** إلى اللحم الذي قد نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينبت بينهما لحم جديد.

السادس: أن **تذيق** الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية وعند ذلك تقول استغفر الله.

قلت وهذه التوبة توبة المقربين وهي أعلى درجات التوبة وإلاّ فليس الواجب إلاّ الركنان الأولان فقط.

وقد روي أن الندم توبة لأن من لازم الندم هو العزم على عدم العود.

وأما الحقوق فليس ذلك يتعلق بالتوبة وتفصيله في كتب الفروع لأن الحقوق أنواع كثيرة ومتفاوتة في الأموال، والأعراض؛ وغير ذلك ولأن الله يقول ﴿**إلاّ من تاب وأصلح**﴾ فعطف الإصلاح على التوبة والإصلاح واجب مستقل يجب

---

(١) التبعة: اثم وذنب.

على المكلف الإصلاح في ما بينه وبين المخلوقين، وإلاّ فهو مؤاخذ به يوم القيامة إذا لقي الله وعليه حقوق للمخلوقين سيقضي من حسناته، كما روي عن النبي ﷺ (ليس على الله بمستعتب يوم القيامة إنما هي الحسنات والسيئات ليس هناك درهم ولا دينار) أو كما قال، وفي حديث آخر (من تعدون المفلس)؟ قالوا من ليس له درهم ولا دينار، قال: (لا إن المفلس الذي يأتي يوم القيامة وله شيء من الحسنات ولكنه قد ظلم هذا وشتم هذا فتؤخذ من حسناته) إلى آخر الحديث وروي في الغيبة في التائب منها أن الله يغفر ما بينه وبين العبد ولا يغفر ما بينه وبين المغتاب حتى يستحل منه وغير ذلك.

فصل في الشَفَاعَة

شفاعة النبي ﷺ ثابتة قطعاً قد ورد بذلك الأحاديث الصحيحة بلا خلاف، وإنما الخلاف لمن تكون، والصحيح الذي يقضي به الكتاب والسنة والعقل أيضاً أنها للمؤمنين، وليست لغيرهم؛ والدليل على ذلك العقل والنقل.

أما **العقل** فإن الشفاعة تكرمة للمشفوع؛والعاصي ليس له تكرمة ولا يستحق ذلك ليس له إلاّ الإهانة ولا يمكن الجمع بين الكرامة والإهانة عقلا، وأيضاً فإن العقل قاضٍ بأن الرسول ﷺ يغضب على من غضب الله عليه. والشفاعة فيها إحسان إلى من غضب الله عليه وهذا لا يقع من الرسول ﷺ وإذا قلنا أن الإحسان يجوز إلى العاصي فذلك يستلزم الأذن ولا أذن في ذلك.

هذا وأما **النقل** فإن الله قد صرح في كثير من الآيات أنه لا رحمة لهم ولا ناصر لهم قال تعالى **﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيعٍ يطاع﴾ ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ ﴿من يعمل سوءاً يجز به ولن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾ ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾** لا يقبل لهم معذرة ولا اعتبار فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

والشفاعة لو كانت لأهل الكبائر كما يزعم من يروي الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي، وهذا الحديث لا يصح عقلاً ونقلاً.

أما العقل فإنه يقتضي الإغراء وذلك لا يجوز على الحكيم: وأما **النقل** فإنه

معارض للقرآن كالآيات المتقدمة، وما عارض القرآن فليس منه بصحيح ومن اعتقد صحة ذلك فليس له أي تحقيق ولا نظر صحيح؛ ولقد روي عنه ﷺ أنه قال (إن أقربكم مني غداً وأوجبكم عَلَيَّ شفاعةً أصدقكم لسانا، وأحسنكم أخلاقاً، وآداكم لأمانته وأقربكم من الناس)، وفي أمالي أبي طالب عليه السلام بسنده قال قال رسول الله ﷺ (ثلاثة أنا شفيع لهم يوم القيامة الضارب بسيفه أمام ذريتي، والقاضي لهم حوائجهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه) وعنه ﷺ (لا تنال شفاعتي ذا سلطان جائر غشوم ظلوم وغالٍ في الدين وفي كل مارق)، وفي الأساس عنه ﷺ (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي إمام ظالم غشوم، وكل غال مارق)، وفيه عنه ﷺ (لا يدخل الجنة صاحب مكس ولا مدمن خمر ولا مؤمن بسحر ولا قاطع رحم ولا منان) أهـ.

وأخرجه المرشد بالله وأبوسعيد السمان وقوله ﷺ (صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي لعنهما الله على لسان سبعين نبياً المرجئة والقدرية) أخرجه الحاكم الحسكاني. فهذه أخبار مصرحة بنفي الشفاعة لأهل الكبائر، وما ذكر في هذه الأحاديث إنما هو تنصيص على بعض أهل الكبائر وهو من النص على بعض أفراد العام للإهتمام بشأنهم والتنبيه على عظم فعلهم، وإلاّ فالحكم من الله على أهل الكبائر واحد لا يختلف؛ فتأمل تصب.

والشفاعة ثابتة للمؤمنين زيادة في درجاتهم وتكريما لهم كما نص على ذلك في القرآن، في قوله تعالى ﴿**ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى**﴾، ولأن الله سبحانه قد وعد نبيه الدرجة الرفيعة، والمقام المحمود وهي الشفاعة فيجب على المكلف أعتقاد ذلك ويعتقد ثبوتها للمؤمنين لأنها إحسان وفضل وتعظيم، ولا يستحق ذلك إلاّ من كان مطيعاً مؤمناً ممتثلاً لأمر الله، ومحسناً؛ وأما العاصي الظالم لنفسه فلا ولا كرامة والله قد أمر بعداوته ومجانبته، وترك الإحسان إليه ومودته، وأمرنا ببغضه بقوله تعالى ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**﴾ وغيرها من الآيات الموجبة لمعادات أعداء الله وقال ﷺ (ألْقوا الفساق بوجوه مكفهرة) ورواه الإمام عز الدين عليه السلام فهذا حكم الله وقضاؤه والعدل للمؤمنين بالحنة والعصاة بالنار حُكْمَ مَنْ لا تبدل أحكامه وخير من لا يختلف كلامه حكم عدل وفصلٌ بينٌ لا هوادة بينه وبين أحد من خلقه

وقد بيّن جل وعلا السبيلين، وأوضح النجدين، ووعد، وأوعد، وجعل الثواب والعقاب جزاء على الأعمال بعد التمكين والإختيار والإعذار والإنذار فقال ﴿**إنا هديناه السبيلين إما شاكراً وإما كفورا**﴾ ﴿**وهديناه النجدين**﴾.

هذا ولو كانت الشفاعة لأهل المعاصي لكان أحق بها صحابة الرسول ﷺ الذي يحلون عن الحوض فيما رواه البخاري وغيره أنه يقول الرسول ﷺ (**أصحابي أصحابي**) **فقيل له إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم إرتدوا بعدك القهقرا فيقول (سحقا سحقا)**، والله ولي التوفيق.

الحكمة في الوعد والوعيد

إن الله سبحانه وتعالى بفضله على خلقه وجزيل منته على بريته أعد لمن أطاعه الثواب الجزيل الدائم، والحكمة في ذلك ظاهرة؛ وهي لما كانت نعمة سابغة وعظيمة يستحق عليها الشكر البالغ العظيم كلفهم بفرائض وواجبات لتكون تأدية لشكره ووعدهم على القيام بذلك الجزاء الوافر العظيم الدائم، ورغبهم وبشرهم بعظم الجزاء ليكون ذلك مقوياً لهم ومؤيداً ومعيناً على القيام بتأدية الشكر حتى لا يصبحوا كافرين ويصيروا بتركهم الشكر من المعذبين وكذلك الوعيد لمن عصاه، الحكمة في ذلك ظاهرة لأن الوعيد والتخويف والتهديد على العصيان مما يحملهم ويقويهم على ترك العصيان وما في ذلك قيام بالشكر الواجب وكان ذلك لطفاً وفضلاً من الله ومنّه يستحق على ذلك الشكر ففي الوعد والوعيد حكمه ومصلحه ظاهرة كما لا تخفى على اللبيب الحاذق الأديب والله ولي التوفيق.

الرسالة والحكمة في ذلك

إن الله سبحانه لما خلق الخلق وانعم عليهم بالنعم العظيمة والفواضل الجسيمة كان من حكمته ومصلحة قضائه أن يستأدي شكره وإذا قد ركب فيهم عقلا نقضي بوجوب شكر المنعم ولكن لا يمكن تأدية الشكر بما يرضاه المنعم وإذ لا طريق للمخلوقين إلى معرفة ما يريده المنعم وهو الله جل جلاله إلاّ برسول من البشر ليبين لهم عن الله تأدية شكره بما شاء من التكليفات الشرعية فبعث الله الرسل في كل أمة ليدعوا الناس إلى ما يرشدهم ويبين لهم ما وجب

عليهم ويدعوهم إلى الرشاد ويحذرهم عن الغي والفساد الموجب للعذاب في يوم يقوم فيه الأشهاد ولئلا يكون للناس حجة بعد الرسل، وقال تعالى ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾ فأخبر سبحانه أنه لا يعذب الناس على العقليات حتى يبعث رسولا رحمة منه وفضلا فأرسل رسله في كل أمة لتعريف الناس قال تعالى﴿**وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير**﴾ ﴿**ولكل أمة رسول**﴾ ﴿**وما أرسلنا قبلك من رسول إلاّ يوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون**﴾ وكل شيء خلقه الله في الإنسان من قلب وسمع بصر والجوارح والآلات كلها فهو لفائدة وحكمه ومصلحه ولن تعرف فوائدها إلاّ بواسطة رسله قال تعالى﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ ولن يعرف الإنسان لماذا خلقه الله ولما جاء به حياً ولما قضى عليه بالموت والفناء والخروج من الدنيا ولم يعلم ذلك إلاّ بواسطة رسله ليعلموهم ويرشدوهم قال تعالى ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ ولإقامة الحكم والمناصفة بين الناس لما أنزل الله ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم**﴾ ولتبشير المؤمنين بما أعد الله لهم من النعيم الدائم على قيامهم بالطاعات الواجبة ولإنذار الكافرين وتخويفهم ولإقامة الحجة عليهم تأكيداً، ﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما**﴾ وغير ذلك من الفوائد التي لا تحصى والمنة والنعمة التي لا تخفى، ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين**﴾ والتعاليم العالية لا تتمكن الأمة البشرية من أن يصلوا إليها بعقولهم وبأي وسيلة إلاّ بوحى من الله على لسان رسوله لتبشر وتنذر ولإقامة الحق وتبيين الحدود الشرعية إلى غير ذلك من الفوائد.

لِكُلِّ أمةٍ رسول

أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلم أن يؤمن بجميع الرسل من غير تفرقة بينهم قال تعالى ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾[1]. وقال تعالى ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين**

---

(١) [البقرة: ١٣٠].

أحد من رسله﴾[1]، إن هذا هو المأخوذ به علي جميع المكلفين من الأنبياء وغيرهم من سائر المؤمنين، إن الله أرسل رسله إلى جميع خلقه في كل العصور فلم تخل أمة من الأمم من رسول يدعونهم إلى الله ويهدونهم إلى سبيل الرشاد ويحذرونهم من الغي والفساد ﴿**وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير**﴾ ﴿**ولكل أمة رسول**﴾ ويكون من الأمة التي أرسل إليها وبلهجتها ولسانها ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم**﴾، ويخصه الله بمواهب عظيمة عقلية وروحية ليكون أهلاً للقبول ولتلقي الوحي وتبليغه ولا بدّ أن يكون له المزايا والفضائل العظيمة ليقوى على الإضطلاع بأعباء الرسالة وليكون مثالاً يقتدى به وله مزية حسن الأخلاق العالية والصفات الفاضلة من الصدق والوفاء والأمانة والتفاني في الحق التي لو لم تكن فيه لما كان أهلاً لحمل الهداية والتبليغ، قال تعالى ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالاته**﴾ ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس**﴾ ولا بدّ أن يكون معصوماً من المعاصي ومن كل منفر ومن كل نقص وعيب.

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الواردة في القرآن في صفة الأنبياء وأن الله قد اصطفاهم وجعلهم في أعلى درجة الكمال من النزاهة والقداسة منزهين من الإثم والخساسة وكل ما يستقبح من الأمور الرذيلة لا يتركون واجباً ولا يرتكبون محرماً ولا يتصفون إلاّ بالأخلاق الحسنة والخلال المستحسنة التي تجعل منهم القدوة الحسنة والمعارف السليمة والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم حتى يكونوا أهلاً للاصفطى والإختيار والإجتباء ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ومن ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**﴾ ولقد تفاوتوا في الفضل وبلوغ الغاية من السمو والرفعة وعلو المنزلة الذي لا يمكن أن تكون في غيرهم ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾[2]، وذلك لتعظيم هيبتهم في القلوب وتعلوا

---

(١) [البقرة: ٢٨٥].

(٢) [البقرة: ٢٥٣].

قداستهم لتحصل الثقة لهم والانقياد لهم لأنهم القادة للخلق والأدلة على الحق ويكمل بذلك غرض الإرسال قال بعضهم أنه لا بد لكل رسول من صفات أربع الأولى الصدق المطلق الذي لا ينقض ولا يوجد غيره في كل حال، الثانية الالتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله إذ مهمة الرسول تبليغ الناس ما كلفهم الله به، الثالثة التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بسخط الناس وإيذائهم أو كيدهم أو إرجافهم والاستقامة على أمر الله وعدم الانحراف عنه، والرابعة العقل الكامل والراجح إذ لا يتبع الناس إلاّ من كان أرجح عقلاً وأوفر فكراً وأذكى الخلق وأفطنهم وأحكمهم وأكملهم بخصال الكمال لتقوم به الحجة ويحصل المقصود من الرسالة والله المؤيد العاصم.

نبينا محمد ﷺ

عند تمام مدة الأنبياء السابقين وتراكم الشر والفتن بين المخلوقين وترادف الفساد في البلاد وتعاظم الباطل بين العباد وكثرة النزاع والخصام والقتل والإفتراق بين جميع الأنام، بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضل الخلق في الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ رحمة للعالمين ختم به النبوة والرسالة وأعلى به كلمة الدين وأحيا به شريعة الله رب العالمين أشاد به قواعد الاسلام ونعش به ما اندرس من شرائع الأحكام وجعل أمته أفضل الأمم كما قال تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[1]، وهو نبي صادق جاء بالحق وصدَّق به وظهرت المعجزات على يديه وأعظمها وأفضلها وأشهرها وأظهرها القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه ﷺ الذي أعجز العرب عن معارضته وأفحمهم بيانه وبلاغته لأن الله تحداهم عن أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وعدلوا إلى مقاتلته إذ لو كانوا مقتدرين على معارضة القرآن لما عدلوا إلى الأشق الذي كان سبب قتل صناديدهم وهلاك أشرافهم. فحادوا عن الأمر الذي كان قتلهم به يوم بدر (سَلْ عن السيف في بدر).

وهم فصحاء العرب وصميمهم من رؤساء قريش وغيرهم الذين كانوا في غاية من الشرف والرفعة على من سواهم، وهكذا شأن المعجز فلا بدّ أن يكون فوق مقدور البشر وخارج عن نطاق طاقتهم وعلومهم ومعارفهم وخارقة للقوانين

(١) [آل عمران: ١١٠].

المألوفة والعادات المعروفة، وحقيقة المعجز هو الأمر الخارق للعادة الذي يجريه الله على يدي نبي أو رسول ليبين به الدليل القاطع على نبوته مع التحدي.

هذا ولقد أجرى الله على نبينا محمد ﷺ معجزات كثيرة وآيات بينات شهيرة خوارق للعادات متعددة شاهدها من حضرها وتواتر إلينا القدر الكافي في تصديقه لمن بعدهم وهكذا في كل عصر إلى يوم الدين، وهي تمتاز عن خوارق العادات الأخرى التي أيد الله بها الرسل بكثير وكثير في الصفة والقدر وأعظم المعجزات هو القرآن كما أشرنا إليه لأنه أعظم حجة وأقوى برهان وأفضل معجزة إذ هو باق في كل زمان إلى يوم الدين ولأنه لما أظهر رسالته كذبه قومه وطالبوه بالبينة على صدق قوله وعلى صحة الرسالة وبالدليل على حقيقة دعوته وبالبرهان الصحيح القاطع على تحقيق نبوته وإظهار حجته فأخبرهم أن بينة رسالته موجودة فأنزل الله عليه حجة قاطعة لا يمكن ردها ولا تكذيبها وهو هذا القرآن الذي يدل على صدقه وفيه من الآيات والدلائل والبينات والمعلومات والعلامات الإلهية ما يكفي المتدبر فنظر المنصفون إلى كلام الله وشهدوا أن هذا الكلام قول الله وأن أي أحد من البشر لا يقدر عليه وأن محمداً الأمي الذي عاش بينهم أربعين عاماً لا يسمعون منه قولاً بليغاً ولا بيتاً من الشعر ولا يقرأ مكتوباً وكان صادقاً في أقواله وأمينا في أفعاله حتى كانوا يسمونه الأمين لحسن سلوكه الأمر الذي دلهم دلالة قاطعة على أنه من عند الله تعالى وكذلك لمّا عجز البلغاء على أن يأتو بمثله ولا بسورة من مثله، أما البعض المستكبرون الصّادُّون عن إستماع كلام الله الذين يتخذون آيات الله هزواً فلمّا وجدوه قد غلب برهانه إلى قلوبهم وتحققوا عجز فصحائهم وخطبائهم وهم البالغون في الفصاحة عن أن يأتوا بسورة من مثله عدلوا إلى الحرب الشعواء التي ذهب رؤساءهم ومنعوا أنفسهم واتباعهم مجرد الاستماع فسجل الله موقفهم في حينه مبكتاً لهم قال الله تعالى ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1]، حتى أنهم يقاطعون من عرفوا منه ميلاً في الاستماع إليه ومن يقدروا على تعذيبه عذبوه وقتلوا من أمكن قتله، ولقد وقفوا على السبل يحذورن الناس من الاستماع لكلام محمد ﷺ لئلا يسحرهم بكلامه،

---

(١) [فصلت: ٢٦].

والمؤمنون لا يتوقفون في تصديق شيء مما جاء به لأنهم وجدوا فيه الدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه شيء من الشكوك والأوهام المؤمن يعلم قطعاً أن الله قادر على كل شيء حتى إلى تبديل الأشياء وعكسها كجعل النار المحرقة باردة غير حارة وجعل الماء ناراً كما في قصة ابراهيم عليه السلام، **﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾**[1].

هذا فلا زال ﷺ يدعوا الناس بمكة من بعد البعثة، في مكة ثلاثة عشر عاماً يتحدى المشركين المكذبين على أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولقد كان بعضهم قائلاً (لو شئنا لقلنا مثل هذا) ولكنهم لم يأتوا بشيء فلجأوا إلى القتال وبذل الأنفس والأموال وكان يكفيهم أن يأتوا بسورة صغيرة بدلاً عن المعارك وما تجلبه عليهم من الخسائر في الأنفس والأموال مع أن الفرصة متسعة والوقت طويل ولكن الأغراض أطول والأهواء والشيطان وجموح الباطل في ذلك الأوان أكثر الذي صد كثيراً منهم عن الإتباع والدخول في زمرة الموحدين والدخول تحت راية سيد الأولين والآخرين هو النبي الأمي الصادق، الذي شهد الله وملائكته له بالرسالة وكفي بالله شهيداً **﴿الله يشهد بما أنزل إليك ربك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾** وكفى بشهادة الله والملائكة المقربين، **﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾**، **﴿يا أيُّها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾**.

إن العاقل الجدير بأن يعرف أن إرسال الله لرسوله إلينا لنعمة كبرى لا يعادلها نعمة ولذا قال الله تعالى **﴿إنا أرسلناك رحمة للعالمين﴾**، **﴿إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾** و**﴿إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**، **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** إن هذا الرسول العربي محمد الأمي الذي اختاره الله خاتماً للأنبياء ينقذ الأمة من بحر الضلالة ويباعدهم من التيه في الجهالة بما أيده الله من القرآن الذي جعله الله حجة ومعجزة ولأمته سراجاً ونورا وهداية

(١) [الأنبياء: ٦٩].

﴿**الٓر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾ لقد أخرجهم من الظلمات إلى النور أخرجهم من ظلمات الشرك والضلالة إلى نور الحق والهداية ولقد شعشع نور الحق والعدالة بمبعثه ﷺ وظهر النور على جبال مكة وصارت الملائكة تنزل بين آونة وأخرى وهرب الشيطان يولول ويصيح وتنكست أعلام بصرى وإيوان كسرى واهتزت بلاد الروم وأرض العجم كلها وظهر نورة في الآفاق يخفق بين ارجاء المعمورة فعلت كلمة الله وغلبت حجة الله وارتفعت أعلام الحق بعد صراع اختاره الله لأوليائه ليعلم المنافق من المؤمن ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم. بقي بمكة ثلاثة عشر عاماً يدع الناس وهم يكذبونه ويعذبون من تابعه ولكن عاقبة الصبر محمودة فرضي الله عنهم وأرضاهم.

التأييد الإلهي

لقد حاول المشركون إطفاء نور الله بكل وسيلة كما حكى الله عنهم ﴿**يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾.

إن التأييد الإلهي للرسول الأعظم ﷺ دليل مبين وشاهد صدق على نبوته وعلى ما يدعيه من الرسالة ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ لا زال مؤيداً بالحفظ والكلاية والوقاية من الله جل ذكره منذ الصبا تحرسه العناية الإلهية من وقت الطفولة إلى أن نشر دعوته ولما أراد الله إظهار دعوته لا زالت تحرسه عناية الله إذ كذبه قومه وكلما أرادو مكره أطفأ الله مكرهم وأخمد نار شرهم وردهم خاسئين على أعقابهم مذمومين لم ينالوا منه بشيء إلى أن كثر غيظهم وأشتد حنقهم اجتمعوا في دار الندوة ويحضر الشيطان مع زعمائهم فندبوا له رجالاً من كل بطن رجلاً بعد عقد جلستهم التي تزعمهم فيها الشيطان الرجيم ليقتلوه وليذهب دمه في العرب أجمع حتى لا يقدر من يريد أن يأخذ بثاره وهذا من مكر الماكر الألد أبي جهل اللعين فأحاطوا بدار المصطفى ﷺ يرتقبون خروجه ليقتلوه فكلأه الله من مكرهم ونجاه من كيدهم

أوحى إليه أن يفعل من يبيت على فراشه تعمية لهم ويخرج ليلاً فخرج بعد ما هدأت العيون وهم محيطون بالدار تالياً ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾، ونام على فراشه أخوه ووصيه ابن عمه علي ابن أبي طالب صلوات الله عليه فكانت له المنقبة الكبرى والفضيلة العظمى.

ففداه ليلة همت به فتية تابعت الشيخ الغويا

فذهب إلى غار جبل ثور تصحبه عناية الله وحياطته حتى ذهب عن الناس خبره، ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾. وقد انطلق مشركوا قريش يرصدون الطريق من كل وجهة ويفتشون كل مهرب وقد بلغوا إلى فم الغار ولكن الله أعمى أبصارهم وبصائرهم فرجعوا خائبين وأيده الله بنصر من عنده، ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾. فبعد ثلاثة أيام توجه إلى المدينة المنورة وكان المشركون قد بذلوا لمن ظفر بمحمد ﷺ وسلمه إليهم مائة من الأبل وكان سراقة بن مالك قد بلغه أن الرسولَ توجه إلى الساحل فطارده حتى لحق به فلمّا أشرف على الرسول ﷺ وقرب منه عثرت به فرسه مرتين ويسقط سراقة على الأرض فلمّا كاد أن يدرك الرسول ﷺ دعا به فساحت قدم فرسه في الأرض فعرف أنه يطارد نبياً فصاح بأعلى صوته ينادي الأمان يا رسول الله وقدم اعتذاره وعرض على رسول الله ﷺ زاده ومتاعه فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لنا ولكن عم عنا حتى لا نطلب، أصبح سراقة في أول النهار عدوا يطلب الرسول ﷺ وأمسى مطلوباً بطلب الأمان ويعتذر عن فعله ويعين الرسول ﷺ بطمس الأخبار عنه والتعمية على المشركين. وهذا تأييد عظيم وحماية كبيرة وحراسه تعينه.

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

ولا زالت الآيات والمعجزات البينات تظهر في حال سفره وتتجدد في أوقات رحلته وقصة خيمة أم معبد مشهورة حتى وصل المدينة بين الأنصار المكارم والرجال الأماجد الذين بايعوه عند جمرة العقبة بمنى الذين استبشروا بقدومه وخرجوا يتلقونه في فرحة وحبور وعيد وسرور وهم ينشدون الأهازيج المنبئة عن الفرح البالغ قد غشيتهم الراحة العظيمة وعمتهم الغبطة الجسيمة ويقولون:

طلع البــدر علينــا　　مـن ثنيــات الـوداع
وجب الشكـر علينا　　مــا دعــى للـه داع
أيها المبعـوث فينـا　　جئت بالأمر المطاع

وهكذا لا زال بالنصر مؤيداً وبالعز وبالظفر مسدداً في كل أوقاته فلمّا تكونت دولته ﷺ بوجود أنصاره فتح باب الجهاد فوقع بينه وبين المشركين أول وقعة غزوة بدر الكبرى التي حكى الله قصتها في القرآن في آيات كثيرة وخرج المشركون في حوالي ألف رجل فيهم أفلاذ أكباد مكة في مائتي فارس والرسول ﷺ في ثلثمائة رجل وبضع عشرة على سبعين بعير وفرس واحد فنصر الله رسوله وأيده بجنود من عنده كما قال تعالى ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾، ولقد سجل القرآن ما أيد الله به رسوله ﷺ وقت القتـال مـن النصر والتأييـد مـن نزول الملائكة وربط قلوب المجاهدين وأنزل النعاس عليهم وأنزل المطـر ليثبت به أقدام المجاهدين وتقليل المشركين فـي أعين المؤمنين لئلا يخافوا وارسال الرياح وإنزال الرعب في قلوب المشركين إلى غير ذلك قال تعالى ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئـن به قلوبكم ومـا النصر إلاّ من عند الله إن الله عزيز حكيم**﴾ ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**﴾، و﴿**إذ يريكموهم إذا التقيتم فـي أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا**﴾، فمكن الله رسوله وأصحابه من أكتافهم وقتلهم شر قتلة، إذ رماهم في وجوههم بقبضة من التراب أعمت أبصارهم ومكنه الله منهم ونصره وأيـده ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾.

فلم تلبث قريش أن ولت على أدبارها هاربة تاركة وراءها سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً من رؤسائهم وأبطالهم واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً، ولا زال ﷺ مؤيداً بالنصر معززاً بالظفر في كل جهاده وأفعاله وكل وقائعه مشهورة مع أنهم في قلة والمشركون في كثرة فتكون الدائرة على المشركين في كل الوقائع والغلبة والنصرة لأولياء الله بتأييد الله ونصره ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها**

وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ وهذا في وقعة الأحزاب التي أظهر الله فيها نفاق المنافقين حينما قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً فكشف الله سرهم وقال المؤمنون ما حكى الله عنهم **﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً من المؤمنين، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾** وكل هذا التأييد رغم ما كان المشركون عليه من القوة والمنعة وما عملوا من الكيد والخدع والمكر والحرب الشعواء ورغم ما بلى رسول الله ﷺ من كثرة المنافقين في المدينة المخربين عليه أمره المفسدين عليه في بلده ومحل أمنه وضرهم أشد من ضرر الكافرين والمشركين لأنهم في صف المؤمنين. وبين أظهرهم فهم أعظم ضرراً وأشد خطراً، **﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾**، فكان من التأييد الإلهي أن ألقى الله في قلوب المنافقين الرعب فكانوا يتخلفون عن المشاركة في المعارك لما علم الله أنهم لو حضروا لأفسدوا على المسلمين، والله عليم حكيم بالمؤمنين رؤوف رحيم.

فضل القرآن

إن الكلام يفضل بفضل صاحبه ويعلوا بعلو قائله ويتفاوت على قدر علومهم ويسموا بقدر مراتب درجاتهم والله جل جلاله عظيم فوق ما يتصور المتصورون فكلامه أعظم الكلام وأفضل الكلام وأبلغ الكلام وفي أعلى درجات الكمال إنه كلام الله علام الغيوب ذو الجلال والإكرام الذي أحاط بكل شيء علما أنزله الله هدى وشفاءً ونوراً لما في الصدور وبياناً واضحاً يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والقرآن هو كلام الله خلقه الله بقدرته وهو تنزيله ووحيه إلى رسوله ﷺ قال تعالى**﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾** وجعله الله حجة على العباد وداعياً إلى الحق والرشاد وزاجراً عن الغي والفساد ومرغباً في الجنة ومخوفاً من النار جعله الله مؤكدا لحجج العقول وشاهداً بصدق الرسول وحاكماً بين لناس مزيلاً للإلتباس وجعل الله فيه جميع ما يحتاج إليه من علم الأصول والفروع ومعرفة الحلال والحرام ومعرفة القضاء والأحكام والمواريث وعلم الشرع وقصص الأولين والآخرين وبيان ما

يكون في يوم الدين وجعله الله نوراً للمؤمنين وضياءً للمهتدين وبالغاً موجزاً قريب التناول معجزاً سماه الله نوراً وموعظة وذكراً وعربياً ومباركاً وغير ذلك من الأسماء الحسنى قال تعالى ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾[1]، ﴿**وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾[2]، ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾[3]، ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[4]، ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى**﴾[5]، ﴿**حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنّا كنا مرسلين، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم**﴾[6]، ففي كل هذه الآيات بأساليبها البالغة وفصاحتها الرائعة تملك على سامعها حسَّه وتستولي على مشاعره وتوقظ حواس فكره وتوحي إلى القلوب أن هذا كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفيه الهدى والنور وبه تنشرح الصدور سالم من التناقض والإختلاف. ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[7]، انه لم يعرف لأي كتاب سواء كان من عند الله أو غيره من الكتب مثل ما لهذا القرآن من سمو الموضوع وسحر البيان وقوة التأثير من حيث ألفاظه ومعانيه وآدابه وأحكامه وتشريعاته وبيناته وعموم آياته، ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب والا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾، إن هذا القرآن هو المعجزة البالغة التي أيد الله بها نبيه الأمي والتي أصلح بها نفوساً وأحيا بها قلوباً وأنار بها بصائر وأضاء بها مشاعر وطهر بها ضمائر وزكى بها رجالاً حلماً وأفلح بها رجالاً عقلاء كرماء قال بعضهم إذا كان قلب العصا حية فإن

---

(١) [البقرة: ١٨٥].
(٢) [فصلت: ٤٢].
(٣) [ص: ٤].
(٤) [الحجر: ٩].
(٥) [فصلت: ٤٤].
(٦) [الدخان: ١-٦].
(٧) [النساء: ٨٢].

تغيير العقول والقلوب أبلغ في الأعجاز، وإذا كان أحياء الموتى من الخوارق التي أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة من الجهل والرذيلة أفضل في الإنجاز وجعلها مصدر شعاع وهداية هو الخارق الذي يتضاءل في جوانبه جميع المعجزات ويتصاغر دون جميع الخوارق للعادات.

اللـه أكبـر إن ديـن محمـد وكتابـه أقـوى وأقـوم قيـلا

لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفأ القنديـلا

وروي عن جعفر الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ (أيها الناس إنكم في دار هدنة على ظهر سفر وإن السير بكم سريع وقد رأيتم الليل والنهار يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود فاعدوا الجهاز لبعد المقام فقام المقداد بن الأسود فقال يا رسول الله وما دار الهدنة قال ﷺ دار بلاء وانقطـاع فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليـل المظلم فعليكـم بالقرآن فإنه شافع مشفع وشاهد مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنـة ومـن جعله خلفه ساقه إلى النار) وهو الدليل على خير سبيل وكتاب تفصيل وبيان وتحصيل والفصل ليس بالهزل لا تحصى عجائبه ولا تبلـى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنارة الحكمة والدليل على المعرفة لمن عرف الطريق فليولج رجل بصره وليبلغ الطريق نظره ينجي من عطب ويتخلص من أشب فإن التفكر حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور بحسن التخلص وقلة التربص أهـ. وعن النبي ﷺ أنه قال (يا حامل القرآن تواضع لله يرفعك الله ولا تعزز فيذلك الله وتزين لله فيزينك الله ولا تزين للناس فيضعك الله، الله أفضل لك من كل شيء هو دون الله من وقر القرآن فقد وقر الله ومن استخف بحق القرآن فقد استخف بحق الله وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده وحملة القرآن يدعون في التوراة المخصوصين برحمة الله الملبسين نور الله المعلمين كلام الله من والاهم فقد وال الله ومن عاداهم فقد عادى الله يرفع الله عن مسمع القرآن بلوى الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الدنيا والآخرة) أهـ. وعن زيد بن علي عليه السلام عن آبائه عن علي أنه خطب فقال (الحق طريق الجنة والباطل طريق النار وعلى كل طريق داع يدعوا إلى طريقته فمن أجاب داعي الحق أداه إلى الجنة ومن أجاب داعي الباطل أداه إلى النار ألا وإن

داعي الحق كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم من عمل به أجر ومن خالفه دحر، ألا وإن داعي الباطل عدوكم الذي أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ألا فاعصوا عدوكم وأطيعوا ربكم ومن أحق بكم من الله، الله خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أهـ. نعم ومنه أخذت الاحكام الشرعية والعلوم الدينية وأن فيه جميع ما تحتاج إليه الأمة من الهدى والبرهان، وإن من صفته وفضله ومن الدليل على سموه ورفعته وإنه كلام الله، إن كل كلام غير القرآن إذا ردد وأعيد مرات يسمج ويَخْلقْ ويمل بخلاف القرآن فإنه مع كثرة الترداد يزداد حلاوة وعذوبة وحسنًا ولذة وطلاَوة ومحبة قال بعض الحكماء في وصفه.

يزداد من طول التلاوة جدة ومتى تُعِدْ شيئاً سواهُ يَخْلِق

تأمل فإنك لا تزال تقرأ فاتحة الكتاب في اليوم مرات كثيرة وفي الليل كذلك وعلى هذ كل يوم وليلة في الصلاة وغيرها ولا تزداد مع ذلك إلاّ حلاوة ورغبة وجده ولذه. وهذا شيءٌ مفهوم وعند كل عاقل معلوم لا تحتاج إلى برهان والله ولي الإحسان والفضل والجود والإمتنان.

تبليغ الرسالة

قد عرفت أن الله تعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى جميع الأمة من الجن والإنس وأنه رسول إلى الناس كافة قال تعالى **﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيرا﴾** **﴿إني رسول الله إليكم جميعاً الذي لـه ملك السموات والأرض﴾**، **﴿لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾** **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**، ولقد بلغ الأمة ونصح وجاهد في الله حتى أتاه اليقين، وأما الطريق إلي تبليغ الجن بالرسالة فحكمة الله بالغة، قال تعالى **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾** وقال تعالى **﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾** وتفيد هذه الآيات أن الجن

مكلفون وأنهم آمنوا بالقرآن وصدقوا برسول الله وأنه أرسل إليهم كغيرهم وتفيدنا هذه الآيات أن شريعته ناسخة لجميع الشرائع السابقة لعموم قوله تعالى ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾.

هذا ولقد سلك رسول الله ﷺ في طريقة التبليغ كل الوسائل على الوجه الأكمل كان يتصل بالأفراد والجماعة إتصالاً شخصياً في الحضر والسفر بالمشافهة والخطابة، وكان يعرض نفسه على قبائل العرب من أجل تبليغ الدعوة ويتتبع مواضع الإجتماعات للناس ليبلغهم وينذرهم ويخوفهم غضب الله وكان يستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين وكان يرسل الرسل لتعليم النائين عنه ويراسل الأمراء والرؤساء والملوك داعياً لهم إلى الله وكلف أصحابه أن يتعلموا ويعلموا ليبلغ الحاضر الغائب ويقول ليبلغ منكم الحاضر الغائب، ولا زال مهذباً لأصحابه ولجميع من حضره في كل حالاته وبكل الأمور الشرعية حتى يأمر جنده وسراياه أن لا يبدأوا أحداً بالقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام ويبلغوهم الشريعة ويعرفوهم وينذروهم.

ثم حَمَّل المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم كله دعوة الاسلام ودعوة الحق ويظهرو دينه وأحكامه ويبلغوا عنه الشريعة، ولقد كان مستمراً قائماً بالتبليغ طيلة حياته يسهر لذلك ليله ويواصل ويتحمل المشاق العظيمة في سبيل ذلك لا يبالي سخط أو تعذيب أو كيد أو مؤامرة أو إرجاف ولقد نال من الإرجاف الرهيب ما هو معلوم حتى لقد كان آخر أمرهم أن تآمروا على قتله مع أنه الشريف الهاشمي ذو النفس الكريمة الحساسة والشجاعة الباسلة الجسيمة التي لا يوجد في غيره ومع ذلك تحمَّل وصبر واستمر ورابط وجاهد وبقي لله صابراً وعلى التبليغ مستمراً مثابراً مجاهداً للمشركين منابذاً حتى أتاه اليقين وقد كمل الله أمر دينه وبلغت دعوته أنحاء المعمورة كلها ﷺ،إن الرسل يبلغون الأمة رسالة الله وفيها ضبط نفوس البشر حتى تستقيم الى السنن الصحيح والطريقة الحقة المخالفة للأهواء والرغبات والمباين للشهوات فلذا يدخلون في صراع وصعوبات ويعانون بويلات وويلات ويتحملون كل شيء في هذا السبيل في مرضات الله فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر عناداً، أو من كافر يصد عن الحق ويشهر السيف فساداً، إن هذا الحماس المنقطع النظير في سبيل التبليغ

ليُعطينا أثراً بالغاً في أن الرسول في أعلى درجات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية أمام الله إن قصر فيه إن تاريخ العالم كله لا يحكي أن أحداً من الرسل قام بما قام به سيد البشر خاتم الأنبياء حيث استوعبت دعوته في خلال سنوات وطبقت شريعته وتعاليمه أكثر بلاد العرب في زمان قصير وأيد الله دينه بالبقاء والدوام إلى منتهى التكليف لا تنسخ ولا تبدل ولا يذهب أبداً لا يزال دينه ظاهراً ولو في طائفة من أمته كما ورد بذلك الأثر الصحيح عنه ﷺ ولقد اختص بمزايا عظيمة من دون سائر الأنبياء منها ما رواه الإمام زيد بن علي وغيره وكقوله ﷺ (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب مسيرة شهر) إلى آخر الحديث فيجب علينا أن نعتقد ونؤمن بنبوة نبينا محمد ﷺ وأنه رسول صادق في جميع ما أتى به من ربه وأن شريعته دائمة إلى انقطاع التكليف وذلك معلوم من ضرورة الدين وأنه رسول إلى جميع الثقلين لقوله تعالى ﴿**إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ وقد تقدم وقال ﷺ (أرسلت إلى الأحمر والأسود) أخرجه في المنهاج بسنده ونعتقده بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونابذ الظالمين وجاهد في الله وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأن القرآن كلام الله وأنه مخلوق محدث أنزله الله على رسوله ﷺ شاهداً بصدقه فيما ادعاه من النبوة وليكون حجة على العالمين وداعياً إلى الحق والرشاد وزاجراً عن الغي والفساد ويجب علينا الإيمان بجميع ما جاء به ﷺ كما يجب علينا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وأن الملائكة هم كما وصفهم الله ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون كما يجب أن نؤمن بأن الإمامة والرياسة خلف النبوة واجبة في كل عصر لإقامة الحدود والجماعات وتنفيذ أحكام الله ولرعاية مصالح العباد من انصاف المظلوم ورد كيد الظالم الغشوم ولإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الظالمين وإقامة العدل والنظر في مصالح العباد والبلاد وإذهاب أنواع الفساد.

هذا ويجب علينا أن نؤمن بإمامة أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وأنه الإمام بعد رسول الله والخليفة والوصي وأفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ لما ورد فيه أنه السابق إلى الإيمان وأكثر الناس عناءً

وجهاداً حتى أقام بسعيه وسيفه قناة الدين وبين بعلومه شريعة سيد المرسلين ولشجاعته الخارقة وعلمه الغزير وزهده الكثير وفضله الشهير وفضائله لا تخفى ومناقبه لا تحصى.

مساع أطيل بتفصيلها كفى مفخراً ذكرها مجملا

لذلك نتبرك بذكر نبذة يسيره مختصرة وبإشارة قصيرة إلى طرف يسير مما ورد فيه مشيراً إلى الحديث فقط وهي مخرجة في مواضعها من الكتب المبسوطة وقد خرجنا بعضاً من ذلك في كتابنا القول المبين فمنها حديث الغدير والمنزلة والمباهلة وتبليغ براءة وحديث الراية والإمارة وباب مدينة العلم وحديث سد الأبواب وأنه سيد المسلمين وامام المتقين وقائد الغر المحجلين وخاتم الوصيين وحديث الأخوة والوصاية والوزارة والوراثة والولاية وأنه إمام الأولياء وعيبة العلم ودار الحكمة وأنه لا يحبه إلاَّ مؤمن تقي ولا يبغضه إلاّ منافق شقي وأنه أول الناس ايماناً وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله وأعدلهم في الرعية وأقسمهم بالسوية وأنه خير البرية وأنه الهادي لمن تبعه ومن اعتصم به أخذ بحبل الله ومن تركه مرق من دين الله ومن أخذ بولايته هداه الله ومن فارقه فارق رسول الله وأن حربه حربه وسلمه سلمه وسره سره وعلانيته علانيته وولده ولده ومن أحبه أحبه ومن أبغضه أبغضه ومن سبه سبه وأنه يحب اللـه ورسوله ويحبه اللـه ورسوله وأنه مع الحق والقرآن والحق والقرآن معه وأنه قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وأنه هو وشيعته الفائزون يوم القيمة وأنه قسيم الجنة والنار وأن من أحب أن يحيى حياة رسول الله ﷺ فليتوله وذريته وأن طاعته طاعة رسول الله وأنه فاروق هذه الأمة والصديق الأكبر والطاهر المطهر، إلى غير ذلك من الأحاديث التي ملئ بها بطون الأسفار وظهرت ظهور رابعة النهار وقد خرجت تلك الأحاديث بالطرق الصحيحة وكفى به فضلا ونبلاً وقدراً وعلواً ما رواه صاحب أنوار اليقين حيث قال روي عن رسول الله ﷺ قال (أن الله جعل لأخي علي فضائل لا تحصى كثرة فمن ذكر فضيلة من فضائله غفر له الذنوب التي اكتسبها بالنظر ثم قال النظر إلى وجه على عباده وذكره عباده ولا يقبل الله إيمان عبد إلاَّ بولايته والبراءة من أعدائه) فصلوات اللـه عليه وكـرَّم الله وجهه لذلك فإن مـن الواجـب مودته ومحبته لأن حبـه إيمان وبغضه نفاق ولأن نفسه

نفس الرسول كما قال ﷺ (هو مني وأنا منه ونفسه كنفسي) وما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ أي عن ولاية علي عليه السلام ولحديث الحوض وهو أنه لا يشرب من الحوض إلاّ من يحب علياً قال الإمام الهادي عليه السلام في الأحكام فإذا فهم ذلك يعني عليه السلام فهم معرفة الله وعدله وحكمته، وجب عليه أن يفهم ويعتقد أن ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واجبة على جميع المسلمين فرض من الله رب العالمين لا ينجو أحد من عذاب الرحمن ولا يتم له اسم الإيمان حتى يعتقد ذلك بأيقن الإيقان ثم ساق بعض ما ورد فيه من الآيات والأحاديث.

هذا ومن أنقاد لحكم الضرورة وسلم لحكم الله وسلم من قيد التعصب والعناد فسيفهم ما عنى الله به من الآيات الربانية والأخبار النبوية والعجب من التعصب وأهله ومن الهوى وحزبه كيف يخرجهم من النور إلى الظلمات وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ولله الشافعي حيث يقول:

إذا طاش طوفان الضلال فنوحه ... على واخلاص الولاء له فلك

إمام إذا لم يعرف المرءُ فضله ... على الناس لم ينفعه زهدٌ ولا نسك

ولولا مني أبي لم أطع أبي ... وحاشا أبي أن يعتريه به شك

بعد معرفة ما ذكرنا فعليك أن تعرف وتؤمن وتعتقد إمامة الحسنين المعصومين سيدي شباب أهل الجنة الذي قال فيهما الرسول الأعظم ﷺ الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا وأبوهما خير منهما، قال الإمام المهدي عليه السلام وهذ الخبر مما أجمعت عليه الأمة، ومحبتهما وولايتهما واجبة لحديث من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس ولحديث (من أحبهما أحببته ومن أحببته أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة) إلى آخر الحديث أخرجه أبونعيم وغيره والأدلة في هذا كثيرة والمقصود الإشارة.

كما يجب محبة بضعة رسول الله فاطمة الزهراء البتول التي قال فيها أبوها ﷺ (فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها) أخرجه مسلم وغيره ولحديث (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني) أخرجه البخاري وغيره وهي سيدة نساء

العالمين في الدنيا والآخرة. كما يجب محبة أهل البيت الطاهرين لقوله تعالى ﴿**قل لا أسألكم عليه أجر إلاّ المودة في القربى**﴾. ولقوله ﷺ (أحبوا الله لما يعذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبو أهل بيتي لحبي) أخرجه أبوداود عن ابن عباس والحاكم في المستدرك والترمذي والبيهقي في الشعب ولحديث (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه وعن حبنا أهل البيت) أخرجه ابن المغازلي. ولحديث حب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن أهوالهن عظيمة أخرجه الديلمي عن علي في الفردوس وفي هذا الباب أحاديث كثيرة روتها الأمة في فضلهم والتمسك بهم وأنهم السفينة والأمان والعروة الوثقى التي من تمسك بها نجا، وليس المقصود إلاّ الإشارة والله ولي التوفيق قال الامام الهادي عليه السلام في الأحكام فإذا فهم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام واعتقدها وجب عليه التفضيل والاعتقاد والقول بامامة الحسنين الإمامين الطاهرين سبطي الرسول المفضلين الذين أشار إليهما الرسول ودل عليهما وافترض حبهما ومن كان مثلهما في فعلهما من ذريتهما حين يقول سبحانه ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى**﴾ ثم أورد من الأدلة ما فيه شفاء ونور وقد أوردنا بعضاً من ذلك آنفاً إلى أن قال وأن الإمامة من بعدهما في ذريتهما من سار بسيرتهما وكان مثلهما واحتذى بحذوهما فكان ورعاً تقياً صحيحاً نقياً وفي أمر الله جاهداً وفي حطام الدنيا زاهداً وكان فهماً بما يحتاج إليه عالماً بتفسير ما يرد عليه شجاعاً كمياً بذولاً سخياً رؤوفاً بالرعية مواسياً لهم بنفسه غير مستأثر عليهم ولا حاكماً بغير حكم الله فيهم شاهراً السيف داعياً إلى ربه رافعاً لرايته مجتهداً في دعوته مخيفاً للظالمين مؤمناً للمؤمنين إلى أن قال فمن كان كذلك وهو من ولد السبطين فهو الإمام المفترضة طاعته الواجبة على الناس نصرته ويعذب الله من خذله ومن قصر عن ذلك كانت الحجة عليه قائمة وليس له طاعة ولا متابعة إلى آخر ما ذكره في الأحكام صلوات الله عليه ثم قال فإذا عرف ذلك المسترشد وعلم كل ما ذكرنا وجب عليه من بعد ذلك أن يعتقد فضل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المخوف وأن يعلم أن ذلك أكبر فروض الله المفروضة عليه فيضمر جهاد الظالمين وينوي مباينة الفاسقين بيده ولسانه وقلبه وبما يقدر عليه من طاقته انتهى ما أردناه والله هو الموفق إلى كل خير ورشاد والهادي إلى كل عز وسداد.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من واجبات الدين ومن فرائض رب العالمين ومن الواجبات المؤكدة التي بها ظهر الإسلام وانتشرت في الأرض معالم الأحكام وبهما قوام الدين واستقامت شريعة الله ذي الجلال والإكرام كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في آخر حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة تقام بها الفرائض وتحل بها المكاسب وينتصف بها المظلوم من الظالم فأنكروا المنكر بألسنتكم وصكوا بها جباههم ولا تأخذكم في الله لومة لائم الخ، والدليل على وجوبه قال تعالى ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾[1]، قد جعله الله من صفات المؤمنين وقرنه بإقامة الصلاة والزكاة قال تعالى ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾ وفي وصية لقمان لابنه وهي ارشاد للناس وتعليم وتأديب وأمر لهم ﴿**يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾[2]، وجعله الله من الصفات الفاضلة لأمة محمد ﷺ والفاصله بينهم وبين غيرهم ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾[3]، وعنه ﷺ (لا يحل لعين ترى الله يعصى فتطرف حتى تغير أو تنتقل) وعنه ﷺ (لا قدست أمة لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر ولا تأخذ على يد الظالم ولا تعين المحسن ولا ترد المسيء عن اساءته) وفي بعضها (ولا تأخذ لضعيفها من قويها) الحديث. وعنه ﷺ (لتأمرن بالمعروف ولتنهُنَّ عن المنكر أو ليسلطنَّ الله شراركم على خياركم فيقتلونكم فلا يبقى أحد يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ثم لتدعنَّ الله فيمقتكم) وعنه ﷺ أنه قال (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ولا يغيرونه إلاّ عمهم الله بعقابه) وعنه ﷺ (لمقام أحدكم في الدنيا يتكلم بكلمة يرد بها باطلاً أو

---

(١) [آل عمران: ١٠٤].

(٢) [لقمان: ٤].

(٣) [آل عمران: ١١٠].

يحيى بها حقاً أفضل من هجرة معي) وعنه ﷺ (لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) وعنه ﷺ (لتأمرن بالمعروف ولتنهُنَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنه أطراً) الحديث وغير ذلك من الأخبار الدالة على وجوبه وأنه واجب مؤكد لا بد من القيام به كيف لا ولا يقوم الاسلام إلاّ به وذلك معلوم عند كافة المسلمين ووجوبه لا يختلف فيه اثنان، والمعروف هو كل ما يلزم فعله من الشريعة أو يندب فعله والمنكر كل ما حرمه الشرع، فالمعروف يشمل أركان الاسلام وواجباته ومندوباته ومسنوناته والمنكر يشمل ما نهى عنه الشارع سواء كان فعل محرم أو ترك واجب بتهاون أو استهزاء. من دون عذر فيجب على المكلف أن يعتقد ويؤمن بوجوب ذلك وأن الأمة إذا أخلت به فقد تركت فرضاً لازماً وواجباً محتماً وهو من الواجب على الكفاية إذا قام به البعض أسقط الواجب عن الجميع وإن تركه الجميع استحقوا العقاب من رب الأرباب فالتكليف عام مهما وقع الاخلال به من الجميع ويدل على ذلك قول الله ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال ولتكن منكم أمة وذلك كاف.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

له مراتب بقدر الحالات وبحسب الظروف والأوقات فأولها وهي أفضلها وأعظمها وأكملها قدراً وأكثرها ذكراً الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس حفظاً لبيضة الاسلام ولإقامة الشرائع والأحكام ولإمحاق المعاصي وموجبات الآثام. والجهاد هو سنام الدين ولم تقم شعائر الاسلام إلاّ بالجهاد ولم تظهر شريعة الله إلاّ بالجهاد ولم يظهر المؤمن من المنافق إلاّ بالجهاد قال تعالى **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾**[1]، **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**[2]، فيجب على المكلف أن يؤمن ويعتقد وجوب الجهاد على الناس كافة وهو من فروض الكفاية لأنه لا يجب على المرأة والعبد والصبي ونحوهما كمن له أبوان

---

(١) [محمد: ٣١].

(٢) [آل عمران: ١٤٢].

عاجزان وغير ذلك وورد في فضله والقيام به آيات كثيرة وأحاديث شهيرة قال تعالى **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**، وصف الله المؤمنين بهذه الأوصاف العظيمة وحصر الإيمان الصادق بمن ذكر في الآية وقال تعالى **﴿إن الذين آمنو وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوو ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾** وقد ذكره في كثير من الآيات وجعله ركناً عظيماً وفضله الله على كثير من الأعمال وأمر به عباده وندب إليه وحث المؤمنين عليه وعظم أجرهم على القاعدين فقال تعالى **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾**[1]، وإنك إذا تأملت الكتاب والسنة تجد الكثير الطيب يهيب بالجهاد ويجعله من لوازم الدين وأنه فريضة عظيمة لها شرفها، وبهذا نعلم أن الدين لم تقم أركانه ولم تشيد بنيانه إلاّ بالسيوف الصارمة لأنوف المشركين والأسنة التي أزهقت نفوس المضلين والمعارضين لما جاء به سيد المرسلين ﷺ فإن النقل المتواتر يفيدنا أن الرسول الأعظم ﷺ لا يزال يجاهد المشركين ويجالد المضلين إلى أن استقام عمود الدين واستنار ضيا الشريعة الالهية وخفقت رايات الحق في الجزيرة العربية. وهكذا يأمر الله تعالى بالجهاد ويجعله ملة ابراهيم أبيكم **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾**.

إن الدين الاسلامي هو الذي كلف الله به البشرية حتى يستقيم أمرها في دنياها وآخرتها إلاّ أن النفس البشرية بطبيعتها لا ترغب في التكاليف والقيود التي تمنعها أهواءها وشهواتها ونزواتها وحريتها وإن كان ذلك لصالحها لذلك فرض الله الجهاد أولاً ليحمل الانسان الأشر على الخضوع لله حتى يقوم الاسلام في المجتمع الإنساني وتكون شريعة الله هي القاهرة وسلطانها في العالم هو الغالب **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾**[2]، **﴿قاتلوا الذين يلونكم من**

---

(١) [النساء: ٢].

(٢) [الأنفال: ٣٩].

الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾[1]، وثانيها هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما المؤيدان للبشرية على قيام الاسلام وعلى نفوذ أحكام الله على الأنام روى البزار عن رسول الله ﷺ قال الاسلام ثمانية أسهم الاسلام سهم والصلاة سهم والزكاة سهم والصوم سهم وحج البيت سهم والأمر بالمعروف سهم والنهي عن المنكر سهم وقد خاب من لا سهم له وروى الحاكم عنه ﷺ أنه قال (الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على أهلك فمن انتقص شيئاً منهن فهو سهم من الاسلام يدعه ومن تركهن فقد ولى الاسلام ظهره).

ثم جهاد النفس

إن الله سبحانه خلق الإنسان على أبدع جمال وأحسن كمال وركب فيه عقلاً يبصر به ويستهدي به إلى منافع دينه ودنياه وهو الفارق بين الإنسانية والحيوانية بهذا العقل تأهل الإنسان للتكليف والحيوان لما لم يكن عاقلاً لم يكلفه الله بشيء لذا شبه الله الانسان الذي رفض التكاليف الشرعية ولم يقم بعبء الأوامر الإلهية بالحيوان وذكره في كثير من آيات القرآن وحقيق بأن الكافرين ليسوا جديرين بصفة الإنسانية، لأن الحيوانية أقرب وأكثر شبهاً بهم وأنسب ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾. صدق الله العظيم، إنه لهو أضل لو كان الحيوان يملك بعض ما يملكه الكافر كان أحسن من حالة الكافر لأن الكافر قد يعلم أن الله الذي خلقه وصوره وأنعم عليه وهو يجحد ذلك ويكفر نعمة الله ويخالف عقله ويرفضه وقد أعطاه الله ذلك العقل فهو يخالفه ويكابر عقله وهو شاهد عليه وفي الحقيقة التي لا شك فيها أن الكافر يعطل جوانب انسانيته ويسخر بنعمة الله وربوبيته ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون**﴾. ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم، الذين لا يعقلون**﴾[2].

ومن المعلوم أن التكليفات الشرعية في الواقع هي تشريف للمكلفين ورفع لمستواهم والسير بهم في نهج النور وتمييزهم عن غيرهم فنحن خليقون بأن نقبل

---

(١) [التوبة: ١٢٣].

(٢) [الأنفال: ٥٥، ٢٥].

نقبل هذه التعاليم الإلهية ونتمسك بالعقل الروحي الأخلاقي الذي يجعل للحياة معنى وللإنسانية خصائصها الواضحة والمرء بأخلاقه وإنسانيته وأول طريق في تزكية النفس البشرية وحبس جموحها وفي جهادها هو ضبط النفس على القيام بمعيار العبودية لله تعالى فلا يظهر خلق من أخلاقها إلاّ في الحدود التي حدد الله عز وجل لإنسان فلا يتعدى الحدود المضروبة والقوانين المعلومة الشرعية الإلهية **﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾**[1]، **﴿تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾**. إنك لا ترى أي أدب أو خُلق أدَّب الله به عباده إلا وهو الكمال الواقعي ولا كمال سواه عنده وأي واجب أو مندوب في الشريعة الغراء وفعله في غاية الكمال ولا أي محظور أو مكروه إلاّ وفعله ينحط به الإنسان إلى غاية من الدنو والرذالة فعلمْ الله بمصالح عباده شامل ومحيط إن الله سبحانه قد علمنا بكل ما فيه صالحنا من فعل أو ترك **﴿علّم الانسان ما لم يعلم﴾**[2]. ومع كون الأخلاق الإسلامية شاملة وكاملة فما كلفنا الله شيئاً إلاّ ونحن نستطيعه وهو داخل تحت قدرتنا وإرادتنا، وما جعل عليكم في الدين من حرج، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، إن مظهر الارتقاء والكمال في هذه العبودية هو الإيمان الكامل وهو القيام بالواجبات واجتناب المحرمات ونكون عبيدالله حقاً إن الله الذي أعطى الإنسان الكمال في الخلق والعقل والقدرة والإرادة والبيان وأنعم عليهم بفواضل الإحسان.

ولا يزال يرفل في نعم الله في كل وقت وأوان فالإنسان خليق بأن يقدم له الشكر الجزيل بخالص العبودية على ما أعطى ويكون عبداً متذللاً لله حتى يرضى أما من لم يؤد شكر الله عليه وكفر بنعم الله فهو لمن أكبر الجاهلين وأحمق الحمقاء المستكبرين **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدالله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾**[3]. إن من الواجب على الإنسان أن يجاهد نفسه فإنها العدو الألد الأكبر لأنها بين أضلاعه ولله درُّ القائل:

---

(١) [البقرة: ١٢٩].
(٢) [العلق: ٥].
(٣) [النساء: ١٧٢].

كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

وهي تدعو إلى الهوى وإلى اللذات والشهوات وتدعو إلى فعل المحرمات لأنها من الشهوات وهي هوائية فهي إلى الهوى أقرب ﴿**إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي**﴾. وإن الله يحذر من النفس الأمارة بالسوء المتبعة للهوى ﴿**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**﴾[1]. والهوى المنهي عنه هوى النفس وهي تهوى المحرمات والمكروهات والرذائل إنها تدعو إلى الحسد والغل والحقد وإلى الكبر والتعالي وتدعو إلى حب الثناء والشهرة وإلى العصبية والحمية الجاهلية وإلى التكاسل وترك الواجبات كالصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك من الواجبات الدينية وإلى عدم الالتزام بأي قانون شرعي وإلى التخلي عن النظم الإلهية وتحب الانطلاق والانفلات إلى كل شهوة وهوى ﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن**﴾. فيجب الجهاد للنفس وربطها على القانون الإلهي الذي حدده الشارع الحكيم وعلى الآداب المأخوذه من المؤدب الكريم القائل ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أي سواء كانت من التي جاء بها الرسل السابقون أو المكارم التي اهتدى إليها الناس في كل العصور أو التي كانت عليها العرب فكانت رسالته جامعة لكل الأخلاق الكريمة والمبادئ الراقية العظيمة والأفعال العالية وكما قلنا سابقاً أن الشريعة المحمدية جاءت بكل خير وكيف لا وهي مأخوذة من القرآن الكريم بإرشاد الله العزيز الحكيم وكما قال ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»

نعم قد ذكر الله النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة وهي صفات للنفس فالنفس في حالة تسلط الغرائز عليها وسيطرة الهوى والاستعدادات الغير الحسنة تكون أمارة بالسوء كما قال الله تعالى ﴿**وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي**﴾. فإذا جاهد الانسان نفسه حتى تهذب بالدين والتعاليم المثالية وجد الضمير مع ذلك هو الشعور النفسي الحي الذي يقف من المرء موقف الرقيب يدعو إلى الخير وينهى عن الشر ويحاسب نفسه بعد أداء العمل مستريحاً بالاحسان ومستنكراً للاساءة وذلك هو حقيقة

---

(١) [ص: ٢٦].

الايمان كما أشار إلى ذلك الحديث عنه ﷺ (المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيئته) فإذا وصلت النفس إلى هذا الطور من اليقظة والمراقبة والمحاسبة واستراحت بالخير وضاقت من الشر كانت في هذا الطور نفساً لوامّة **﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾** فإذا واصل الانسان جهاد نفسه حتى يتخلص من الهوى وقمع شهوته وكبحها وسمت نفسه إلى الخير والجمال وإلى الحق والكمال وترفعت عن النقائص بلغ المنزلة الرفيعة والحالة الرشيدة التي يريدها الله من الإنسان في هذه الحياة ليكون أهلاً لجواره في الدار الآخرة وكان من الذين قال الله فيهم **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾**[1]. فإذا بلغ الانسان هذا المستوى الرفيع الغالي تكون نفسه قد اطمئنت بقبول الحق والخير وصار في درجة رفيعة راقية يشار إليه بالأصابع ويقتدى به في أفعاله وأقواله صدق عليه قوله تعالى **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾**[2]. وما لم يصل نفسه إلى مستوى يحسن فيه ويمدح عليه يكون قد عرض نفسه لخسارة لا يمكن تداركها وفاته نعم لا يقدر على تلافيها **﴿ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾** أن الخسارة الحقيقية هي خسارة الدين والإفلاس الحقيقي هو الافلاس من الحسنات ومن اكتساب الطاعات نعوذ بالله من ذلك ونسأله رحمة يهدي بها قلوبنا ويزكي بها أعمالنا ويعصمنا بها من كل سوء ومكروه وينصرنا بها على عدونا الشيطان الرجيم آمين اللهم آمين.

الاخلاص في العمل

إن الإخلاص لله هو محور القبول وهو من الصفات الروحية التي تسمو بالمرء إلى منزلة رفيعة لأنه ضد هوى النفس والرياء والغايات الشخصية وكل ذلك مبطل للأعمال والإسلام يحاربها قال تعالى **﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**. وقال تعالى **﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾**.

---

(١) [الحجرات: ٧].

(٢) [الفجر: ٢٧].

فأوجب الله النيـة في جميع العبادات وقال ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هو هاجر إليه»، فالنية الطيبة هي عنصر من عناصر التربية الخلقية التي يجعل الإسلام إسلاماً صحيحاً فليجهد المرء نفسه في استحضار النية في ابتداء كل عمل وتكون النية طيبة خالصة لوجه اللـه ليكون العمل مقبولاً ويلزم مع ذلك الاستقامة وهي من أهم أهداف الدين لأنها تحرس الانسان من نزعات الشر والإنسان إذا لم تصحبه الاستقامة ضعف إقباله على الخير وأصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام بهذا نرى الإسلام دعى إليهـا بأسلوب يستهوي الأنفس ويؤثر فـي أعماقهـا بما وعـد المستقيمين من الأجر العظيم حين يقول تعالى ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم**﴾[1]. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أوصني قال قل آمنت بالله ثم استقم، ولا تفيـد الأعمال الطيبة بشيء إلاّ مع الإستقامة عليها لتكون الخاتمـة طيبة وعليها يكون الجزاء والله ولي التوفيق.

جهاد الشيطان

إن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من الشيطان ومكايده ويخبرنا أنه عدونا قال تعالى ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا أنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾[2]، فإنه قد تحقق بنص القرآن أن الشيطان عدو ومن، المعلوم أنه عدو مبين وخصيم لعين يمثل الشر في الأرض بكل أنواعه ويعمل دؤوباً على تدمير حياة الإنسان ويبعده عن هداية الله ويزحزحه عن طريق الرشاد ويزحزحه وعن منهج الحق والسداد بكيـده ودجله وخداعه. قال تعالى ﴿**وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾[3]. يزين أعمال الشر ويصورها في قالب من الحسن والجمال

---

(١) [فصلت: ٣٠-٣١].
(٢) [فاطر: ٦].
(٣) [الأنعام: ٤٣].

وأنها من صفات الكمال فحسَّن الكفر والمعاصي وتكذيب الرسل ورد الأمر الإلهي، إن الشيطان هو الذي دعى الناس إلى تحريف الدين وإلى الخروج من الفطرة الطاهرة والدخول في الخصلة البائرة حتى حرموا الحلال واحلوا الحرام وفعلوا الأفعال الشنيعة وهدموا أركان الشريعة، **﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾**[1].

إن أعمال الشيطان تتجه دائماً إلى التمرد على الله وعصيانه وإلى التخريب في الدين والتفريق وإلى التبديد والتمزيق وإلى كل فعل قبيح وإلى كل شر وفساد وعتو وعناد وإلى قطع ما أمر الله به أن يوصل ووصل ما أمر الله به أن يقطع ويفصل وإلى السعي في الأرض فساداً ويأمر جنوده وأعوانه وإخوانه وأنصاره وأخدانه ليفسدوا في الأرض بكل وسائل الاضلال لذلك فإنه لا بد من الجهاد العظيم لهذا الشيطان الذي لا يزال عدواً للإنسان في حياته ويلاحظ إغواءه وإضلاله في كل أوقاته إنه لا بدّ أن يعمل للإنسان الحيل الدقيقة والمكر والخديعة يأتي لكل واحد بما يصلح له لاغوائه ويقدر عقله وذكائه فمن رآه أن سيقبل الشرك والكفر سوَّل له أي نوع من أنواع الأعمال أو العقائد الموجبة للشرك إما الجحد للواحد القهار أو عبادة الأوثان والأصنام أو غير ذلك من موجبات الشرك الذي جعله الله ذنباً عظيماً **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾** وإذا وجد المسلم لا يخرج عن إسلامه أتاه من طريقة أخرى فيعمل له مكراً وخداعاً في العمل بأي نوع من أنواع الكبائر كالقتل والزنا وشرب الخمور ونحو ذلك من أنواع الفجور وإذا لم يقدر عليه من هذا القبيل عاد إلى حيل أخرى يحبب إليه الأموال وجمعها واكتسابها حتى يدخل في اكتساب الحرام وإذا لم يمتثل له كذلك دعاه إلى حيل أخرى من الأخلاق الذميمة كالغيبة والحسد والنميمة أو غير ذلك من أنواع المذام الموجبة لاكتساب الآثام ولو في الاشتغال بعيوب الناس والدخول في الفضول وفيما لا يعني وهو بنفسه أعنا حتى يشتغل بعيوب غيره وحقه أن يكون بعيبه اشغل ويجهّل الناس وهو بنفسه أجهل يرى القذا في عين أخيه ولا يدرك الجذع في عينه والرسول ﷺ يقول «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»، فعليك بجهاد نفسك ثم جهاد الشيطان حذراً من الإغواء

---

(١) [النحل: ٦٣].

والإضلال فلا تنم عنه فهو عنك لا ينام ولا تأمنه فهو غادر ولا تغفل عنه فهو ماكر واطرده بذكر الله وتباعد عنه بتقوى الله فأنه جليس الغافل وقرين المتباعد والجاهل والمشغول بالدنيا والمتغافل قال تعالى ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين**﴾[1]. ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾[2]. وهكذا يكون من أعرض عن الله وعن أوامره يعرض الله عنه برحمته ولطفه وتوفيقه وهو حقيق بالخذلان، وجدير بتركه من كل احسان وقد صار يستحق الذم والحرمان، حينما يعرض عن الله المنعم عليه بفواضل الامتنان، وهو يقابله بالاعراض والعصيان، أما المؤمن فهو يتحصن عن الشيطان بأنواع من الذكر والعبادات، ويطرده عنه بالأعمال الحسنة وتلاوة الآيات، قد نور الله قلبه للهدى وزينه بالتقى وبصره معايبه فهو يتحذر منه ويجاهد بكل قواه، ويصبر على جهاده ويعاني نفسه أشد المعاناة ويحملها على التقوى ويصبر على البأساء والضراء ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا**﴾[3]. ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين**﴾[4]. وهكذا شأن المؤمن هو يجاهد نفسه ولا يتبع هواه ويقـدم أمر ربه على هوى نفسه ويراقب ربه ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾[5]. نسأل الله التوفيق وأن يبصرنا معايبنا.

جهاد الكافرين والباغين والمنافقين

إن الله سبحانه وتعالى جعل فرقاً مبيناً وسوراً حصيناً بين أوليائه وأعدائه وقضت حكمته الإلهية كما يؤيد ذلك العقل الفطري أنه لا تناسب بين الجنسين

---

(١) [الزخرف: ٣٦-٣٨].
(٢) [طه: ١٣٤-١٣٧].
(٣) [السجدة: ١٦].
(٤) [الحجر: ٤٣].
(٥) [الأعراف: ٤٣].

ولا اتفاق في الأغراض والأهداف ولا في الخُلُق، وأن القلوب متباينة والآراء مختلفة والرغبات متفرقة غير مؤتلفة فهذا له أهداف وأغراض وهذا له أعمال وأسباب وهذا له أنوار وهدايات وهذا له ظلمات وجهالات **﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾**[1]. **﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾**[2]. **﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾**[3]. فلا يستوي المؤمن والكافر والمصدق والمكذب والبر والفاجر ولا يستوون عند الله **﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾**[4].

لهذا الأمر العظيم والاختلاف الجسيم أمر الله بالموالاة والمعاداة والمقاطعة والمباينة وعدم المخاطبة والموالفة والمباعدة عنهم بكل الوسائل إلى حد القتال وسفك دمائهم على شرائط معروفة وحَرّم الموالاة لهم ومحبتهم وجعل موالاتهم مشاركة لهم في أعمالهم والراضي بأفعالهم كالفاعل قال تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾**[5]. **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾**[6]. **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباؤهم أو أبناءهم﴾**[7]. فترى هذه الآيات وغيرها مصرحة بوجوب مباينة أعداء الله وأن من والاهم فهو منهم وأن الإيمان لا يجتمع مع موالاة أعداء الله وهذا يدلك على ما قلناه من أن الله جعل بين المؤمنين والكافرين غاية التباعد والتباين وعدم التآلف والتناسب وهو أمر عقلي لأن هذا مطيع وهذا عاصي وفرق بين المطيع والعاصي لأن الله سبحانه أوجب على المؤمنين المقاطعة والمباينة والمعاداة وهو من تمام الإيمان وعلامة ذلك

---

(١) [المائدة: ١٠٠].
(٢) [فاطر: ١٩-٢٢].
(٣) [الملك: ٢٢].
(٤) [السجدة: ١٨-٢٠].
(٥) [الممتحنة: ١].
(٦) [المائدة: ٥١].
(٧) [المجادلة: ٢٢].

أنك تحب الله وتكره عدوه لأنك إذا أحببت عدوه لم تتم طاعتك ومحبتك له، ولهذا يقول الشاعر:

تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النوك عنك بعازب

ومن المعلوم أن محبة العاصي لعصيانه يدل على محبة العصيان فلم يحصل مع ذلك محبة الله، وأوجب الله محبة المؤمن لأن ذلك من تمام الإيمان لأنه يدل على أنك تحب الإيمان إذا كان محبتك للمؤمن للإيمان وهو معروف وأمر معلوم أيضاً لأنك إذا كنت تحب طاعة الله صدقاً فإنك تحبها من أينما وردت وتحب المطيع لأنه أطاع من تحبه وكذلك العاصي إذا أنت تكره معصية الله فيجب أن تكرهها من أينما وردت وتكره العاصي لأنه عصى من تحبه سبحان الله لهذا ورد الموالاة في الله والمعاداة في الله باب عظيم وروي عنه ﷺ «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله» وأخرج الطبراني بلفظ أفضل الإيمان أن تحب لله وتبغض لله وأخرج أحمد بن حنبل والبيهقي عنه ﷺ «أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» أهـ. هذا ويترتب على ذلك المعاملة وترك المجاملة وهو أن الله سبحانه لما فرض على المسلم طاعته وأوجب عليه شكره وكلفه بأنواع من التكاليف العقلية والشرعية وجعله عبداً وأمره بالخضوع لطاعته والإمتثال لأوامره ونواهيه وفي سابق علمه أنه لا يقبل أوامره ويلتزم بطاعته إلاّ بعض خلقه الذين عملوا بعقولهم واستضاؤا بنور الله الذي هدى به خلقه جميعاً كان من حكمة الله وتقديره أنه لا يتم إيمان العبد وإسلامه ويكون ملتزماً بعرى الايمان وأحكامه إلاّ أن يغضب لغضب الله ويرضى لرضاء الله لأن ذلك من كمال الطاعة والإمتثال لذلك أوجب الله الجهاد لاخضاع العاصي ورد كيده وشره ومنعه من الإفساد ومخالفة أوامر الله ومن تطوره في السعي في الأرض فساداً وتهتكه بأوامر الله عتواً وعناداً وفساداً ليكمل بذلك شرف الإيمان ولينال بذلك أفضل الثواب والإحسان ولمزيد البلوى والاختبار وظهور ما تصبوا إليه النفوس من الاختيار ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم**﴾[1]. وللجهاد مع الكفار والمنافقين والفاسقين مراتب أما أولاً فإن الله سبحانه وتعالى أوجب الجهاد بأنواعه وكل

---

(١) [محمد: ٣١].

واحد بمستطاعه فهو كما رتبه الرسول ﷺ باليد أولاً فإن لم يمكن باليد فباللسان فإن لم يمكن فبالقلب وذلك أضعف الإيمان فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس الله أعلاه أسفله ولفظ الحديث «غيروا المنكر بأيديكم فإن لم تستطيعوا فبألسنتكم فإن لم تستطيعوا فبقلوبكم وهو أضعف الإيمان» وفي رواية أخرى أخرجها أبوطالب في أماليه: «إن أول ما تغلبون عليه من دينكم الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس أعلاه أسفله كالجراب يؤخذ بأسفله حتى يخرج ما فيه من الإيمان» من الأمالي والله أعلم. وعلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وردت روايات كثيرة وقد تقدم شرح ذلك ومراتبه وإنما أردنا زيادة الإيضاح وقد روي أن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة إلاّ إذا ظهرت المنكرات ولم يتناكروا فقد استحق القوم العقوبة كلهم هذا لا شك أنه يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أنْ يقدم الدعاء إلى الله بالقول اللين بالوعظ والتذكير والتخويف من عذاب الله والتفهيم بالوسائل المقبولة والتوجيه إلى الخير قال تعالى إرشاداً لنبيه موسى وهارون **﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾** إن قبل ذلك وإلاّ فبالتهديد والتوعد بإنزال الضرر ثم باليد يمنع ذلك المنكر بالضرب إن أمكن.

وتجب المعاونة على ذلك والتناصر والتآزر والتماسك وعدم التخاذل والتفرق و**﴿اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾** ومهما كان في الاستطاعة تكوين جبهات والتمكن على ما يقوم به أمر الجهاد من العدة والقوات وجب على المتمكنين نصب علم الجهاد ورفع راية الحق والرشاد ومنابذة أعداء الله بالقتل والقتال والجلاد ومطاردة المفسدين في كل بلاد ويعلنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المخوف ويلتزمون أوامر الله في ذلك بلا حيف ولا مجاملة ولا ظلم ولا شيء من سيء المعاملة وللجهاد شروط ومراتب ومعاملات تطلب من المطولات إنما المراد هو الإشارة فقط كما شرحنا سابقاً وأن أول مراتبه الدعاء إلى الله ثم أنزال أقل الأضرار إن كان يندفع بذلك وإلاّ فما فوق ذلك إلى القتل وهو آخر الأمر فإن كان للظالمين شوكه وتمكن المسلمون من منعهم ودفاعهم كان ذلك

هـو الواجب ومن تخلف عن ذلك أو قعد بلا عذر موجب فهو عند الله عاص وآثم لنفسه مداهن وظالم ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[1] صدق الله العظيم.

الدعوة إلى الحق

إن الإرشاد إلى الدين وإلى الحق والدعاء إلى ذلك بوسائل الارشاد والتوجيه الحسن من الواجب الديني الاسلامي ومن الحقوق الأخوية وقد ورد الترغيب في ذلك والحث عليه من القرآن والسنة قال تعالى ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾[2]. وقال تعالى ﴿**قل هـذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾[3]. ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾[4]. وقال ﷺ «الدين النصيحة قالها ثلاثاً قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين ولعامتهم» أهـ. وان الإخوة الدينية تقتضي ذلك لأن المؤمنين كالبنان أو كالبنيان وكالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله ويعلم المرء أنه مسؤول عن أمر المسلمين ولذا روي من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم وحق على كل مؤمن أن يحب لاخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه وأن يحب الإرشاد والدعوة إلى الحق ويهتم بأمر المسلمين ويكتسب كل ما أمكن من أنواع الخير بأن يهدي من أمكن ويذكر قول رسول الله ﷺ «لعلي يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير مما طلعت عليه الشمس» وما أحق المؤمن بهذا الخير العظيم وثواب الإرشاد والدعوة إلى الحق وأنه لأمر متحقق كيف وهو انقاذ للخلق من العذاب الأليم وإحياءٌ للنفوس الميتـة بداء الجهل والضـلال ﴿**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**﴾[5]. وهي حياة عظيمة وسعادة أبدية ونجاة من الشقاوة السرمدية الأخروية ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

---

(١) [آل عمران: ٢٠٠].
(٢) [النحل: ١٢٥].
(٣) [يوسف: ١٠٨].
(٤) [المائدة: ٢].
(٥) [المائدة: ٣٢٥].

واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذ منَ علينا ورحمنا أرسل إلينا رسولاً ملئ بالرحمة والرأفة، ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ دلنا على الخير وأمرنا به وهدانا إلى سواء السبيل ﴿**وإنك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وإلى الله تصير الأمور**﴾[1]. دعى الخلق إلى طاعة الله وأرشدهم إلى كل خير وسداد وباعدهم عن الغي والفساد فكان من أمره أن أجابه ناس وكذبه أخرون إلى أن أُمرِ بالجهاد ففعل فدخلوا في دين الله فمكره ومغتبط وطائع يزداد فأصبح الجميع بنعمة الله متآلفون وأخوة متواصلون ﴿**فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾[2]. وهذا من فضل الله ورحمته أن مَنَّ الله علينا بأفضل خلقه وأشرفهم الذي مدحه الله بالقرآن وأوضح إحسانه وبره وشفقته على الخلق وحسن تربيته وإرشاده وحسن معاملته للقريب والبعيد يحب الخير ويدل عليه ويكره الباطل ويحذر عنه فليس مربياً وداعياً إلى الخير مثل محمد ﷺ ففعل ما فعل بامكانيته المحدودة مادياً ومعنوياً بعث أمي عملي خذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن يصلح أمة كافرة ضالة بهذه الامكانيات المحدودة الغير المتوفرة والفترة القصيرة مثل رسول الرحمة ﷺ يقول التاريخ اللهم لا وألف لا إنه وفي الواقع الحقيقي لا يوجد مُرَبٍّ كمحمد ﷺ ونورد لك بعض القضايا مع رسول الرحمة الدالة على حسن أخلاقه أخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أتأذن لي في الزنا فأقبل القوم عليه فزجروه فقال الرسول ﷺ «ادن مني» فدنا منه قريباً فقال «اجلس» فجلس فقال ﷺ «أتحبه لأمك» قال لا والله جعلني الله فداك قال ﷺ «فتحبه لابنتك» قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك وعدد رسول الله ﷺ قرابته هكذا وهو يجيب كالأول قال فوضع يده ﷺ عليه ثم قال «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه» قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء أهـ. وروي عنه ﷺ أنه قال يوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب والرسول ﷺ لا يريده فقال «يا ويح

---

(١) [الشوري: ٥٣].

(٢) [آل عمران: ١٠٣].

قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فإنهم إن أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة» يعني الموت أهـ. وهذه كلمة أحاطت بكل المواضيع بحسن وسيله وبخير أسلوب إنها كلمة تجعل قريشاً مستسلمين لأمره منقادين لحكمه لو هناك رشـد وإنصاف وعن ابن اسحاق من حديث أبي سعيد الخدري قال لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين وقسم للمتألفين من قريش لسائر العرب ولم يقسم للأنصار تغيرت قلوب بعض الأنصار حتى قال قائلهم، فمشى سعد بن عبادة رضي اللـه عنه إلـى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم قال فيم قال فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قريش وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء قال فأين أنت من ذلك قال ما أنا إلاّ امرؤ من قومي فقال رسول ﷺ فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فقام فيهم رسول الله ﷺ خطيباً فحمد الله وأثنى عليه فقال «يا معشر الأنصار ألم آتاكم ضُلاَّلا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداءً فألف بين قلوبكم»، قالوا بلى ثم قال رسول الله ﷺ ألا تجيبون قالوا وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك المن لله ولرسوله قال والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك وخائفاً فأمنّاك ومخذولاً فنصرناك، فقالوا المنُّ لله ولرسوله فقال رسول الله ﷺ أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة[1] من الدنيا تألفتُ به قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم اللهِ لكم من الإسلام أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وابناء الأنصار قال فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا رضينا بالله رباً وبرسول الله قَسْماً ثم انصرفوا ورواه أحمد من حديث ابن اسحق أهـ. وهكذا كانت أخلاق الرسول العظيم ﷺ وهو كما وصفه الله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ وكما قال تعالى ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ وهكذا يجب

---

(١) أي شيء تافه.

أن يتخلق الداعي إلى الله بالأخلاق الحسنة في سبيل دعوة الحق ليكون القبول ويرشد السائل والمسؤول أن الدعوة إلى الحق واجب عظيم وهي فرض على الكفاية وهي من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتجب بكل الوسائل وبكل طريقة تؤدي إلى المطلوب من الأخلاق الحسنة والوسائل المستحسنة والتوجيهات المقبولة الطيبة والمواضيع السلسة ولكل حال مقال ولكل زمان رجال فكل مقام يقتضي كلاماً ما لا يقتضيه الآخر فيراعي المقامات واللبيب الحاذق لا يجهل المناسبات واللوازم وعلى الداعي أيضاً أن يروض نفسه ويصلحها أولاً فيكون حسن السيرة حسن السلوك ورعاً تقياً صالحاً وبعد أن يكون كذلك لا يغفل عن عائلته وما يلزم من الإصلاح لهم ومنعهم عما لا يجوز ولا يليق ولا ينبغي لأنه إذا لم يكن كذلك فلا يقبل منه وكيف يقوم الظل والعود أعوج وكما قال أبوالأسود الدؤلي:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

خطر الشيوعية

قال الله تعالى ﴿**ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾. إنا نلاحظ الآن وفي وقتنا الذي ظهرت فيه الشيوعية الملحدة التي فتنت بجهلها ودجلها وأضلت بكثرة عددها وخدعها كثيراً من شباب المسلمين وتسرب ضرها وعم شرها في كثير من أقطار الموحدين وكثرت أعمالها الرهيبة وتقوَّت بالمجاوبة في أكثر بلاد المسلمين القريبة لها والبعيدة عنها وأعملت كل وسائلها في التخريب والإضلال وتوصلت بالوسائل المغرية في هدم أركان الدين وطمس شريعة رب العالمين ولكن يأبي الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره المشركون وشريعة نبينا خاتم المرسلين لا بد وأن تبقى إلى يوم القيامة والإسلام محارب في كل وقت ولكنه يضعف بقلة أهله المتمسكين به هذا ولقد عمَّ ضرها في أكثر الشباب والأغبياء والجهال. وأنا لننادي المسلمين في جميع

أنحاء المعمورة ونبث، الشكوى الحارة في كل بلاد مجتمع إسلامي وإنه ويا للأسف، لم تتيقظ أفكار المسلمين ولم تتحرك ضمائرهم ولم ينتبهوا من غفلتهم ولم يستيقظوا من رقدتهم مع أن أعداء الدين قد تحزبوا حزبا وتفرقوا في كل جهة لإمحاق الشريعة وما علموا أن أعداء الدين قد أيقظوا مشاعرهم وركزوا أفكارهم لخراب الدين وهدم أعلام الشريعة وعقدوا ضمائرهم على الغدر بنا وعلى محو أثار ديننا فلا تتجاهل أيها المسلم الكريم ولا تتغافل عن عدوك فتصبح وقد افترستك ذئابهم وأسرتك شرارهم وأوثقتك قيودهم هذا ويا للأسف ثانياً نقول أنه لقد أصبح المسلمون فرقا وشيعاً متفرقا في وقت ما كان أحوجنا إلى الإلتفاف والإتفاق وإلى لمّ شمل الافتراق وجمع الكلمة والوفاق والاعتصام بحبل الله المتين كما قال تعالى ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾. وقال تعالى ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾. فجمع الكلمة من الواجب رداً لأعداء الله ودفعاً لهم ولخطرهم الرهيب حيث أن الشيوعية الملحدة الكافرة قد عقدوا ضمائرهم على الغدر بنا وأيقظوا لذلك أفكارهم ولقد أعناهم بتفرقنا وتبدد شملنا وأن من الواجب علينا الاعتصام بالله كما قال تعالى ﴿**أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ ونكون يداً واحدة على جهاد أعداء الله من الشيوعية الملحدة التي هي أضل من الأنعام وأجهل من عبدة الأصنام لأن من يعبد الأصنام يقر بذي الجلال والإكرام وإن كانوا يعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع وأشركوا بالله واتخذ مع الله آلهة أخرى وإن كان قد لعنهم الله وأبان قبيح فعلهم وخزي عملهم، أما الشيوعية فهي الجاحدة لربها والتايهة في ضلالها وغوايتها، ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون**﴾[1].

نلاحظ أولاً ونقول أن مناهج التعليم والآداب والتوجيهات لا بدّ وأن يكون الهدف واحداً وأن يكون الهدف والمبدأ الذي يرشد إليه الطالب هو المبدأ الإسلامي والتعليم الشرعي الإلهي بالأخلاق السامية والآداب الراقية العالية وتقديم معالم الشرع والالتزام بها من واجبها ومندوباتها ومسنوناتها. وكذا

(١) [الجاثية: ٢٢-٢٤].

توحيد الله وعدله وتوابع ذلك ملتزمين بالعقيدة الاسلامية والمبدأ الصحيح الذي مضى عليه سلفنا وأخذه علماؤنا من آباءهم وأسلافهم إلى التابعين والصحابة الراشدين لا نميل ولا نتحول أو نزول أو يعترينا شك أو ريب أو يخالجنا وَهَم، فاسد أو عيب حيث أنا قد قطعنا وعلمنا علما يقيناً صرفا أن نهجنا الإسلامي ودراستنا ونظام ديننا هو الشرع الإلهي وقد آمنا بذلك وصدقنا وآمنا بالله ورسوله ﷺ وبما جاء به عن الله وأدينا الشهادة الخالصة بالتوحيد والعدل وللرسول بالرسالة وبالبلاغ وأنه عبده ورسوله إلى كافة الخلق على الإطلاق عند ذلك، ومعه نعلم علماً يقيناً أن غير هذا الدين والإيمان. وغير هذا الاتجاه باطل وفاسد عاطل ومهما كثر اليقين في التوحيد وفي حقيقة الإسلام يزداد الإنسان بصيره ويقينا وتشتعل أنوار الحق ومصابيحه ويزداد هدىً وبصيرة ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾، إنه حين يقوم الانسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح بأن يخلص لله العبادة وتجنب عبادة غيره وتحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية غيره وأن يُحكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم أي شريعة سواها وأن يتأدب بالآداب الإلهية والأخلاق السماوية التي قررها الله له ويرفض الأخلاق والقيم المدَّعاة ثم بأن يتعرف في النواميس الكونية التي أودعها الله في هذا العالم ليعرف ويتحقق ويستخرج من بواطن صنع الله ما يزداد به يقيناً وإيماناً راسخاً فإنه لا يتزلزل، بقول ملبّس أو مخادع، إن المؤمن حينما يستمد تصوراته وموازينه وتفكيراته من الناس فإنه عيب وخطأ وقد أعطى له التفكير والتصورات كغيره فليستمد ذلك من رب الناس وهو حسبه وكافيه قد ركب فيه عقلاً يهديه من ظلمات الجهالات فلا يتبع الهوى والشهوات ولا يعول على الأقوال والخرافات حتى يعتمد على ميزان الحق ويثبت على الحق بيقين وماذا بعد الحق إلاّ الضلال ومهما كان للضلال من سلطان ومهما كان له من جموع وأعوان فإنه لا يغير من الحق شيئاً ولن يختار المؤمن الضلال ويعدل إليه وهو مؤمن ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾. ﴿**ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد**﴾. إن المؤمن والكافر كل منهما يبذل طاقته لكن الكافر يعتمد على ما

يبذله من ضلال وهوى والمؤمن يعتمد على الله الكبير المتعال ويلتزم بأوامر الله ورسوله ويطيع الله ورسوله ﷺ وقد حكى الله عن الطرفين بقوله تعالى **﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليهم مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون، إنما كان قول المؤمنين إذا ادعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾**[1]. **﴿والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**. وقال الرسول ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» الحديث. إن الإنسان يتهرب من المسؤولية أمام الله ويتهرب من التكليف يريد أن يكون حراً كما أن الحيوان حر ولكن الله الذي جعل الجماد والنبات والحيوان وكل شيء مسخر للانسان فأعطى الله الإنسان هذا الكون كله.

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾، **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾**. ولكن الله سبحانه يطالبنا بالشكر على ما أعطانا وذلك بالقيام بطاعته **﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾**. ولما كان الكافر متعصياً لا يريد أن يفهم هذه الحقيقة ولا أن يكون عبداً لله ولا يخضع لأمر الله، فرض الله على المسلمين جهاده حتى يخضع لأمر الله ويُرغمَ لقبول الحق ويلتزم بالشريعة فإن أبى فيقتل والحكمة في ذلك هو أنه لو تُرك الكافر وشأنه وخلى عنه يفعل ما يشاء وحتى يحكم على نفسه بما يهواه لكان فَي ذلك دمار للحياة البشرية وشقاء للإنسان لا يخفى وتعب لا يفنى وأن المنع والجهاد للبعض قد يكون في زجر للآخرين، هذا فلا سعادة ولا سلامة لأهل الأرض إلاّ بالاسلام والمسلمون لا يحل لهم أن يعطوا لأهل الأرض سلاما إلاّ بالإسلام والخضوع والاستسلام للاسلام إلاّ إذا اضطروا أو لمصلحة كافية في ذلك وذلك عملاً بتعليمات الشارع الحكيم فإذا لم يخضعوا للاسلام ونظامه فالحرب. قال تعالى **﴿قاتلوا الذي يلونكم من الكفار وليجدوا**

---

(١) [النور: ٤٧-٥٢].

فيكم غلظة﴾ ﴿وقاتلوهم حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ ومهما لم يخضع الكل لسلطان الله فالفتنة قائمة وموجودة والواجب أن تعلوا كلمة الله وتخفض كلمة الشرك وكل ما خالف الشرع والله وليّ التوفيق.

الرابطة الاسلامية

المجتمع الاسلامي هو الذي يهيمن عليه إله واحد تجمعهم كلمة التوحيد وذل العبودية والخضوع للواحد القهار توجه العبادة له وحده لا يشرك فيها غيره وبهذا ترتكز حضارة الإنسان وتتمثل فيذكر أمته كما قدرها الله له والله قد أعلن خلافة الإنسان في الأرض وأعلن تكريمه في الملأ الأعلى ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر. ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم حين يكون التآلف الاسلامي هو العقيدة الصحيحة والتصور الفكري الصحيح ملتزمين بالشرع الصادر من الإله العليم الواحد القدير ستمثل فيه السعادة العليا والسيادة الكبرى للبشر إنها أمة واحدة ربها الله وعبوديتها له وحده لا شريك له، وإن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام عبادة وعقيدة وشريعة ونظاماً وخُلُقاً وسلُوكا لا يمسه شيء من الجهالات التي لا يطبق فيها الاسلام وعقيدته ولا عقيدته ولا نظامه وموازينه وشرائعه وخلقه وليس المجتمع الاسلامي هو الذي يضم ناساً يسمون أنفسهم بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون وإن صلّى وصام وحج وزعم أنه مسلم وهو يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه غير ما قرره الله سبحانه ورسوله ﷺ إن الحكم إلاّ لله أمر ألا تعبدوا إلاّ إياه، ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، إن الاسلام يقرر قيمة الانسانية وأخلاقيتها التي تنمي في الإنسان الجوانب وتميزه عن الحيوانية إن التقدم الإنساني هو الذي يسير في إتجاه الضبط للنزوات الحيوانية وحصرها في نطاق الأسرة على أساس الواجب لتأدي بذلك وظيفةٌ انسانية ليست اللذة غايتها وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميزات الحضارة الإنسانية الدينية والعقيدة الصحيحة والأعمال الخيّرة التي يبتعد بها عن خصائص الحيوان ولا ينفعل بالطوارئ التي تنشئها التوجيهات الخبيثة والإيحاءات المسمومة والخدع المذموم والدجل الموهوم والذي ينتج عنه ذهاب الشيم الإنسانية والقيم الروحية ويتخلى عن كل آداب الجنس البشري ويصير

في ظلمة الحيوان البهيمي ﴿**إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً**﴾. إن الله قد أوضح لنا طريق الحق بأنواره وأبان لنا سبيل الخير ودعانا إلى سلوكه وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، قل إن هدى الله هو الهدى، وأن هذه الآية لهي المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع إليه في هذه الشؤون فليس وراء هدى الله إلاّ الضلال وليس في غيره هدىً وهذا التقييد بصيغة الحصر والقصر بضمير الفصل وتعريف الهدى ولا سبيل إلى الشك في مدلول هذا النص الإلهي الصحيح فشريعة الله هي السبيل الواضح وغيرها فهؤلاء واضح قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون**﴾. ﴿**فأعرض عن مَّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى**﴾[1]. لقد شهدت كل أمة عرفت الاسلام ومعناه واستضآت بنوره وهُدَاه أن أفضل الأديان واعدلها وأقومها وأحسنها هو دين الإسلام دين العدل والمساواة ودين الحق والأخوة والمواساة والذي يحمي المسلم في عرضه وماله وبدنه ودينه فلا دين يمتهن ولا عقل يضيع ولا نفس تهدر ولا مال يضيع ويسلب ولا نسل لا قيمة له ولا عامل لا أجر له ولا مؤمن لا فضل له وهو الذي جاء به رسول الله وصفوته وخيرته ﷺ وتعبدنا الله به إلى يوم القيامة هو دين الاسلام الذي يقول الله فيه ﴿**ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾، ﴿**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون**﴾. ولقد أمرنا الله، بالالتزام به والقيام بواجبه والانتهاء عما نها عنه والجهاد عليه والدعاء إليه ﴿**يا أيها الدين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا الله ربكم لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتو الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾. صدق الله العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد الله رب العالمين وبهذا تم الكتاب والله الموفق للصواب ونسأل الله الكريم رب العرش

---

(١) [النجم: ٢٩-٣٠].

العظيم أن يجعل هذا لنا من العمل المقبول وأن ينفع به كل من اطلع عليه وأن يكون نافعاً للطالبين ومرجعاً للراغبين وأن يجعله ذخراً ونتوسل إلى الله جل وعلا أن يوفقنا لصالح الأعمال وأن يحشرنا في زمرة الرسول الكريم ﷺ الأكرمين وأن يجعلنا ممن اهتدى بسبيله ومن شيعته وشيعة عترته ويقود بنواصينا لخدمة العلم والعلماء وصلى الله على محمد الأمين وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

الحمد لله رب العالمين شاكراً الله تعالى على التمام وكان الفراغ من تأليفه ليلة الأربعاء ٢ رجب ١٤٠٠ ألف وأربعمائة وله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وآله وسلم.

بقلم جامعه الفقير إلى عفو الله تعالى صلاح أحمد عبدالله فليته عفا الله عنه وغفر له ولوالديه والمؤمنين آمين.

المحتويات

كلمة المؤلف	٥
علم أصول الدين	٧
مكانته	٧
أهميته	٧
حكمه	٧
غايته	٨
معرفة الله	١٠
فضل معرفة الله	١٣
وسائل المعرفة	١٥
المعرفة عن طريق العقل	١٥
التقليد الذموم	١٨
بطلان التقليد	١٩
امتياز النظر الفكري عن غيره	٢٠
وجه وجوب النظر	٢١
طريقة النظر	٢٣
الدليل على وجوب النظر	٢٣
غاية التفكر	٢٥
المعرفة من طريق الأسماء والصفات	٢٦
العالم محدث	٢٧
فائدة	٣٣

العقل مع القرآن ٣٧
التفكير في المخلوق ٤٢
النهي عن التفكير في الله تعالى ٤٤
التوحيد ٤٧
إن الله واحد لا إله إلا هو ٥٠
الله حي موجود ٥٣
الله واجب الوجود ٥٩
البرهان على وجود الله ٦٠
الله تعالى قادر ٦١
الله تعالى عالم ٦٤
الله تعالى قديم ٦٧
الله تعالى غني ٦٩
الله تعالى سميع بصير ٧٠
إرادة الله ومشيئته ٧٢
الله لا يشبه الأشياء ٧٦
الله لا يرى بالأبصار ٧٧
باب العدل ٨٥
أفعال الله كلها حسنة ٨٧
حسن التكليف ٨٨
أفعال العباد ٩٠
الآيات القرآنية ٩٤
العقول الضالة ٩٦

زيغ القلوب في تأويل المتشابه ٩٧
العلماء مع الحجاج لعنه الله ٩٩
الوعد والوعيد ١٠٥
المجازاة ١٠٦
آيات التخليد ١٠٨
الإيمان ١٠٩
فصل في التوبة ١١٠
فصل في الشفاعة ١١٢
الحكمة في الوعد والوعيد ١١٤
الرسالة والحكمة في ذلك ١١٤
لكل أمة رسول ١١٥
نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ١١٧
التأييد الإلهي ١٢٠
فضل القرآن ١٢٣
تبليغ الرسالة ١٢٦
إمامة أمير المؤمنين ١٢٨
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٢
مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٣
جهاد النفس ١٣٥
الإخلاص في العمل ١٣٨
جهاد الشيطان ١٣٩
جهاد الكافرين والباغين والمنافقين ١٤١

الدعوة إلى الحق ١٤٥
خطر الشيوعية ١٤٨
الرابطة الإسلامية ١٥٢